من أسرار التنزيل

للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي

سنة ٦٠٦ هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

الناشر
دار المسلم

من أسرار التنزيل

للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي

سنة ٦٠٦ هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

الناشر

دار المسلم

تم التعاقد مع الأستاذ عبد القادر احمد عطا على تحقيق هذا المخطوط لحســاب دار المسلم بموجب تنازل محرر بخطه لعدة طبعات ٠

ودار المسلم ستقاضي كل من سولت له نفسه من طبع ذلك المخطوط والرجوع عليه بالأضرار الأدبية والمادية التى لحقتنا ٠

والله المستعان

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

رموز المستعملة فى التحقيق

ج = نسخة مكتبة جامعة القاهرة

ر = نسخة دار الكتب المصرية

[ ] = كلمات أضفناها لتوضيح المعنى

إهـــداء

إلى روح الرجل الذى أسهم فى توجيهى نحو تراث الإسلام منذ الأربعينيات
الرجل المهاجر بدينه ، والذى احتمل الآلام والغربة فى سبيل الله .
العالم الفذ الذى لا نجد له نظيرا فى العصر .
الشيخ فى عمره ، والشاب فى عمله .
الذى مات والقلم فى يده ، ونصرة الله فى قلبه : ومستقبل الإسلام فى عقله .
الإمام الشيخ محمد زاهد الكوثرى .
وكيل المشيخة الإسلامية العثمانية . . طيب الله ثراه .

المحقق

الحركة فى شعار الاسلام

تمهيد :

شعار الإسلام (لا إله إلا الله) . والعلم بهـــذا الشعار ينقل الإنسان بالتصديق للشق الثانى من الشعار ، وهو (محمد رسول الله) .

ومن دلائل العظمة فى المنهج الإسلامى : أنه يقبل هذه الكلمة من قائلها ، ويسلكه فى عداد المسلمين ، حتى ولو لم تكن قد استقرت فى قلبه على مدرجة اليقين ، الأمر الذى يحدث خلطا بين المؤمنين والمنافقين ، ويدفع إلى التساؤل الفورى : وكيف تستقيم الحركة الإسلامية على طريقها وفى جمهور السائرين على الطريق صادقون ومنافقون ، ونحن قد أجمعنا على أن النفاق والإرجاف والفتنة والخيانة شىء واحد ؟

ونقول : إن النظام الإسلامى المحكم الذى أحكمه الله فى كتابه ، والرسول فى سنته ، لم يكن غافلا عن خطورة النفاق والمنافقين ، وهو فى الوقت نفسه ليس نظاما « بوليسيا » ينقض على أولئك المرضى ويزجّ بهم فى ظلمات السجن والاعتقال ، بل يتلطف بهم ، ويسلكهم فى إطاره العام ، ويتيح لهم فرصة الشفاء من هذا المرض اللعين بصحبة المؤمنين المخلصين ، وفى الوقت نفسه ينبه إلى سماتهم وعلاماتهم وصفاتهم حتى يكون المؤمنون على حذر منهم ، دون أن يواجهوهم باتهام صريح يفصلهم عن جمهور المسلمين .

فعلى الرغم من أن القرآن الكريم يعنى بالأصـــول : ويترك تفاصيلها للسنة النبوية ، إلا أنه فى موضوع النفاق بالذات نجده يفيض ويستقصى صفات المنافقين صغيرها وجليلها ، ظاهرها وخفيها ؛ بحيث لا يشذ واحد منهم عن أنظار المسلمين ، ثم نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يفسر هذه الصفات ، ويجمعها تحت بنود قليلة لتكون معروفة للجميع ، ثم يملى أسماء المنافقين على واحد من أصحابه يعتبر « كاتما للأسرار » بحيث لا يفضحهم المسلمون ولا يقعون فى حبائلهم التى كانوا ينصبونها المسلمين .

والدليل على أن البيانات الخاصة بالمنافقين كانت سرية ، وعلى أن

سياستهم كانت موكولة للرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، أن كبار الصحابة من أمثال عمر بن الخطاب كانوا يسألون حذيفة بن اليمان الذى كان يعرف المنافقين جميعاً كما أملاهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حالهم ، وهل توجد أسماؤهم بين قوائم المنافقين أم لا ؟

ولعل سرية هذه المعلومات كانت تؤدى عملا هاما آخر هو : استدامة اليقظة من الصحابة لأنفسهم ، وتفقدهم لها ، حتى لا تشوبها شائبة من النفاق الذى يعرض أحيانا فى صور لا يدركها الإنسان إلا بضروب من التأمل الدقيق ، وقد يخفى وجه الحق فيها على مثل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، كما جاء ذلك فى قصة حنظلة الأسدى الذى قصد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقت الظهيرة ، فلقيه أبو بكر ، فسأله عن وجهته ، فقال له : نافق حنظله فقال أبو بكر : وما ذاك ؟ قال : إنا نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصف لنا الجنة والنار ، كأنا نراهما رأى عين ، فإن رجعنا إلى أهلينا ، وعافسنا (لاعبنا) الزوجات والأولاد نسينا ؟ فقال أبو بكر إنى والله لأجد مثل ذلك . وانطلقا معا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث طمأنهما على أن ما يجدانه ليس من النفاق فى شىء وقال : « لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى الطرقات ، ولكن يا حنظلة ، ساعة وساعة » . فالنسيان هنا حصن أمين من غلبة الروحانية على المسلم حتى لا يفقد صلاحيته للحركة الإسلامية التى تعنى بالعمل الروحى والعمل الحضارى على مستوى واحد لا يتغلب أحدهما على الآخر .

كانت الحركة الإسلامية تمضى فى طريقها ، وكان النفاق يلعب دوره على الطريق ، ولكن اليقظة النبوية ، وذكاء الصحابة ما كان يدع للنفاق فرصة للنجاح . وكان قبول الشهادتين باللسان من المنافقين سياسة إسلامية عليا كان من نتائجها أن يكون من أبناء المنافقين رجال من كبار الصحابة المؤمنين ، كان عبد الله بن أبى بن سلول رأس النفاق ، وكان ابنه من كبار المؤمنين ، ومع أنه رأى أن أباه قد ارتكب من الجرائم ما يستحق عليها القتل فى العرف العربى ، إلا أنه لم يشأ أن يرى الجلاد الذى ينفذ حكم الإعدام

فى أبيه إن حكم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعدام ، فعرض عليه أن يأمره بقتله حتى يكون هو اليد التى تقتص من أبيه الذى أجرم فى حق أم المؤمنين عائشة فى قصة الإفك فوق جرائمه فى حق الحركة الإسلامية وعقيدة الإسلام .

ولولا سماحة النظام الإسلامى على هذه الصورة المعجزة لما أمكن استبقاء إخلاص أبناء المنافقين وذوى قرباهم — فيما نرى — إلا على صورة أخرى غير تلك الصـــورة المشرفة التى تتألق على هامة الزمان من تاريخ أبناء الإسلام .

ولولا حكمة النظام ، وذكاء المؤمنين ، ودقة المنهج النبوى لمااستطاع النظام الإسلامى أن يحمى نفسه من كيد هذه الفئة الشيطانية ، ويستبقى إخلاص أبنائها وعشائرها على صورة نامية ومتعاظمة ، بل إن أى نظام وضعى فى الدنيا كلها يسلك هذا الطريق ، فإنه لابد أن يصاب فى صميمه عاجلا بفعل مكائد النفاق . أو آجلا بفعل الضجة المثارة حول أساليب القمع والاعتقال والتعذيب والقتل لحماية المجتمع من آفة النفاق .

ولما كان النفاق آفة شاملة للناس جميعا على صور ودرجات مختلفة ، فإن الإسلام كان حكيما كل الحكمة فى عدم مواجهة المنافقين بالعداء ، وفى الحذر الذكى من أساليبهم وعملهم الهمجى اللئيم ضد مسيرة الدعوة . .

وكما كان الإبقاء على أهل الكتاب بين المؤمنين عاملا على إتاحة الفرصة لهم ليهتدوا إلى الإسلام بمعاشرتهم للمؤمنين ، وباقتناعهم عن قرب بسماحة الإسلام وطبيعته البناءة ، فكذلك كان الإبقاء على المنافقين بين المؤمنين دون إجراء « بوليسى » عاملا من العوامل التى تفتح الباب واسعا أمامهم للتأمل والتدبر فى دلائل صدق شعار الإسلام كما قررها القرآن ، ومن هنا يمكن أن تتصل قلوبهم بشعاع من نور الصدق الذى لا يبعد عن كل متدبر ومتأمل .

* * *

لا إله إلا الله فى السنة النبوية :

قلنا فى دراستنا المقدمة لكتاب « القصد والرجوع إلى الله » للإمام

السلفى الجليل الحارث بن أسد المحاسبى : « إن النطق بالشهادتين على أى وجه من الوجوه يعتبر فى صورة من صوره تحولا من عمق الجحود والكفر إلى أول طريق المعرفة والإيمان ، وهذا النطق اللسانى لايخلو من قدر — ولو كان قليلا — من عمل قلبى يلازم نطق اللسان ولا يفارقه .

« فالنطق بالشهادتين لم يكن ارتجالا من الراغب فى الدخول إلى الإسلام ، وإنما كان عن أمر الله تعالى — وهو الغيب المطلق — وبإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غيب آخر هو الوحى الذى يعتبر من غيب آخر هو عالم الملائكة ، وهو عالم أقرب إلى مدارك الإنسان من الغيب المطلق ، فأصبح الرسول البشر هو الآخر بداية لحركة القلب بالعمل نحو الغيب الذى هو عناصر الإيمان » .

وأساس الإيمان « لا إله إلا الله » . ومتى استقر الإيمان بهذه الكلمة سهل الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وهى عناصر الإيمان الأخرى .

وكلمة « لا إله إلا الله » لها شأن عظيم فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد أخرج الشيخان عن أبى ذر قال : خرجت ليلة من الليالى ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى وحده ، وليس معه إنسان ، فقلت : إنه يكره أن يمشى معه أحد ، فجعلت أمشى فى ظل القمر : فالتفت فرآنى فقال : « من هذا ؟ فقلت : أبو ذر جعلنى الله فداك . قال : يا أبا ذر ، تعاله ، فمشيت معه ساعة فقال : إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله خيرا فنضح فيه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيرا ، قال : فمشيت ساعة ثم قال لى : أجلس ههنا حتى أرجع إليك ، فانطلق فى الحرة (الأرض ذات الحجارة السود) فأطال اللبث ، ثم إنى سمعته يقول وهو مقبل : وإن زنى وإن سرق ، فلما جاء لم أصبر فقلت : يانبى الله ، جعلنى الله فداك من تكلم فى جانب الحرة ؟ ما سمعت أحداً يرجع إليك شيئاً ، قال : ذاك جبريل عرض لى فى جانب الحرة فقال : بشر أمتك

من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . فقلت : ياجبريل ، وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم : فقلت : يارسول الله ، وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم وإن شرب الخمر » .وزاد الترمذى فى روايته فى المرة الرابعة : « على رغم أنف أبى ذر » .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والبيهقى عن عثمان بن عفان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه إلا حرم على النار » . قال عمر بن الخطاب ألا أحدثك ما هى ؟ هى كلمة الإخلاص التى ألزمها الله تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهى شهادة ألا إله إلا الله .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال : كنا قعودا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فى نفر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا ، فأبطأ علينا ، وخشينا أن يقتطع دوننا ، ففزعنا فقمنا : فكنت أول من فزع ، فخرجت أبتغى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أتيت حائطا للأنصار ، لبنى النجار ، فدرت هل أجد له بابا : فإذا ربيع (جدول) يدخل فى جوف حائط من بئر خارجة ، فاحتفزت (تضاممت) فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أبو هريرة ؟ فقلت : نعم يارسول الله . قال : ما شأنك ؟ قلت ، كنت بين أظهرنا فقمت فأبطأت علينا ، فخشينا أن تقتطع دوننا ، فكنت أول من فزع : فأتيت هذا الحائط ، فاحتفزت كما يحتفز الثعلب فدخلت ، وهؤلاء الناس ورائى . فقال : ياأبا هريرة - وأعطانى نعليه - اذهب بنعلى هاتين ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد ألا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره ، بالجنة . فكان من أول من لقينى عمر ، فقال : ما هاتان النعلان يا أبا هريرة ؟ قلت : هاتان نعلا رسول صلى الله عليه وسلم بعثنى بهما ، من لقيته يشهد ألا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشرته بالجنة ، فضربنى عمر بين ثدى فخرزت لإستى ، فقال : ارجع يا أبا هريره ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجهشت بالبكاء ، وركبنى عمر فإذا هو على

أثرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك يا أبا هريرة ؟فقلت ؟ لقيت عمـــر فأخبرته بالذى بعثتنى به ، فضرب بين ثديى فخررت لإستى ، فقال : ارجع : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمر ، ما حملك على ما فعلت ؟ قال : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقى يشهد ألا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه بشره بالجنة ؟ قال : نعم . قال : فلا تفعل ، فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها : فخلهم يعملون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فخلهم » .

وأخرج أحمد والدارمى وابن حبان والطبرانى عن رفاعة الجهنى قال : أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بالكديد أو قال : بقديد ، فجعل رجال يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهليهم فيأذن لهم ثم قام فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام يكون شق الشجرة التى تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبغض إليهم من الشق الآخر ، فلم أر عند ذلك من القوم إلا باكيا : فقال رجل : « إن الذى يستأذن بعد هذا لسفيه ، فحمد الله وقال خيرا ثم قال : أشهد عند الله لا يموت عبد يشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله صدقا من قلبه ثم يسدد إلا سلك فى الجنة ، وقد وعدنى الله عز وجل أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ، وإنى أرجو أن يدخلوها حتى تبوأوا أنتم ومن صلح من آبائكم وأزواجكم وذرياتكم مساكن طيبة فى الجنة » .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال : قلت : يارسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : « لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألنى عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه : أو من نفسه » .

وأخرج البزار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بوصية نوح عليه السلام ابنه ؟ قالوا : بلى قال : أوصى نوح ابنه فقال لابنه : يا بنى ، إنى أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن

اثنتين . أوصيك بقول لا إله إلا الله ، فإنها لو وضعت فى كفة ووضعت السموات والأرض فى كفة لرجحت بهن ، ولو كانت حلقة لقصمتهن حتى تخلص إلى الله ، ويقول سبحان الله العظيم وبحمده ، فإنها عبادة الخلق ، وبها تقطع أرزاقهم ، وأنهاك عن الاثنتين : الشرك والكبر ، فإنهما محجبان عن الله . فقيل ، يارسول الله ، أمن الكبر أن يتخذ الرجل الطعام فيكون عليه الجماعة ، أو يلبس النظيف ؟ قال : ليس ، يعنى بالكبر ، وإنما الكبر : أن تسفه الحلق : وتغمص الناس » . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠ /٨٤ : وفيه محمد بن إسحاق ، وهو مدلس ، وهو ثقة ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

* * *

ولكن عامة الأحاديث منها ما يعتبر الكلمة موجبة للجنة فى حالة اليقين بها ! ومنها ما يعتبر الكلمة موجبة للجنة فى حالة التصديق بها فقط . . ولما كان اليقين مرتبة من مراتب الإيمان فوق مجرد التصديق ، وكان التصديق مرتبة من مراتب الإسلام فوق مرتبة النفاق ، فكيف انتقلت السنة والقرآن بالإنسان من الإسلام إلى الإيمان : وما هو المنهج المحدد الذى يصل بالإنسان إلى ذلك ؟

وقبل أن نتعرض لبحث هذا الموضوع نسوق نموذجا من السنة ، ثم نعقب بالبحث فى تعاون الكتاب والسنة على الوصول بالإنسان إلى الإيمان واليقين ، حيث لا يستطيعهما الإنسان وحده دون منهج مرسوم ومحدد بكل الدقة والتنظيم .

أخرج أبو داود عن عتبة بن عبد السلمى قال : كنت جالسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابى فقال : يارسول الله : أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكا منها — يعنى الطلح — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يجعل مكان كل شوكه منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود ، فيها سبعون لونا من الطعام لا يشبه لون الآخر » .

وأخرج الإمام أحمد عن عتبة أن أعرابيا جاء فسأل النبى صلى الله عليه

وسلم عن الحوض والجنة ثم قال : أفى الجنة فاكهة ؟ قال : « نعم ، وذكر شجرة تدعى طوبى . فقال : أى شجر أرضنا تشبه ؟ قال : ليست تشبه شيئا من شجرة أرضك . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيت الشام ؟ قال : لا . قال : تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة ، تنبت على ساق واحد ، وينفرش أعلاها ، قال : ما عظم العنقود ؟ قال مسيرة شهر للغراب الأبقع لا يفتر . قال : ما عظم أصلها ؟ قال : لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرما . قال : فيها عنب ؟ قال : نعم . قال : فما عظم الحبة ؟ قال : هل ذبح أبوك تيسا من غنمه قط عظيما ؟ قال : نعم . قال : فسلخ إهابه فأعطاه أمك فقال : إتخذى منه دلوا ؟ قال : نعم . قال الأعرابى : فإن تلك الحبة لتشبعنى وأهل بيتى . قال : نعم وعامة عشيرتك .

فالرسول صلى الله عليه وسلم ينتقل بالمسلم من الحوافز التى تجعله أشد استمساكا بكلمة التوحيد وهى المغفرة ، والجنة ، والبراءة من النار ، وتجعله أكثر اتجاها إلى اليقين بها ، والبحث عن مقومات هذا اليقين فى القرآن والسنن الأخرى ، ينتقل الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلم فجأة إلى مرحلة من مراحل خطاب الوجدان الذى لا يمكن أن يعتمد على الاقناع العقلى ، بقدر ما يعتمد أساسا على الإيمان الغيبى المجرد .

فأنت ترى أن السنة النبوية لا تدع المسلم يستقر فى حال من السكر والوجد الذى ينتهى إلى النسك والتأمل المجرد من الحركة كما كان الحال فى شريعة المسيح ، بل إن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ومنهاجه يجمع بين الاستبطان الذاتى ، والتأمل الداخلى ، والاسترواح الوجدانى ، والحركة الفعلية ، والعمل الجسدى فى حركة متناسقة بحيث لا تطغى ناحية على أخرى .

فالتماوت والإطراقة المسرحية التى يهيم بها هواة الوجد والاصطلام أو صانعوه لا وجود لها فى الإسلام ، ولكن الذى له وجود هو نفس الشعور الذى يشعر به المتماوت والمطرق والمصطلم مقرونا بالحركة والنشاط العقلى والجسدى سلبا مع المحرمات وإيجابا مع الواجبات والمفروضات . ومن هنا فقد سئل

للرسول صلى الله عليه وسلم عن سمة الإخلاص فى كلمة التوحيد فقال : « أن تحجزه عن محارم الله ».

وحينما أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم سائله عن ثمر الجنة بأن مكان كل شوكة ثمرة فيها سبعون لوناً من الطعوم لا يشبه لون منها لوناً آخر ، فإنه يريد أن يخرج السائل وغيره عن دائرة الإقتناع العقلى بالغيب إلى دائرة التسليم المبدئى بالغيب كخطوة أولى على طريق الإيمان الحقيقى ، حتى يتمكن طالب الإيمان من متابعة المنهج القرآن المرسوم بكل الدقة للوصول بالمؤمن إلى اليقين الوجدانى الذى يفوق فى الإقناع والاقتناع حجة العقل وبراهين المنطق الإقناعى المشهور .

فالعقل له حدود فى الإدراك يصاب بعدها بالدهشة والحيرة والذهول ثم الوقوف أمام أمرين : إما التسليم عجزاً ، وإما التوقف والإنكار مكابرة ونفياً لما هو واقع بالفعل ولكنه غير مدرك بالعقل . ولهذا نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول للأعرابى : إن شجرة طوبى فى الجنة لا تشبه شجر الدنيا ، وليس من شجر الدنيا ما يشبهها . ولما وجد الأعرابى متشبثاً بالعقل فيسأل عن عظم أصلها وجذعها ، بدأ يخرجه عن دائرة المألوف الذى يطيق العقل والخيال تصوره فقال له : لو ارتحلت جذعة من إبل قومك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماً ، وأما عظم عنا قيد الثمر فيها فيحيط بها الغراب الأبقع فى طيران شهر متواصل ، وأما الحبة الواحدة من الثمر حجمها حجم الدلو الذى يستقى به الماء عند العرب

ولك أن تحاول أن تتصور بخيالك جذع شجرة تدور حوله ناقة عشرة أعوام على الأقل فلا تبلغ نهاية قطرها ، ولك أن تتصور عنقوداً من الثمر حجمه مسيرة غراب لمدة شهر من الزمان ، ولكنها فى الحقيقة محاولة غير ناجحة ، لأن تصور قطر جذع شجرة من الشجر يبلغ قطر قارة من قارات الأرض أمر عسير على العقل أن يتناوله ، ومن هنا وجب أن يخرج المسلم الطالب للإيمان عن نطاق العقل حتى يستطيع أن يضع قدمه على أول طريق للحركة الإيمانية الغيبية التى تعتبر المنطلق الأساسى للحركة الإسلامية .

ولو أننا وقفنا مع العقل وتحركنا مع العقل لوصل بنا العقل إلى إنكار الصفات الإلهية ، وخلط الشرك بالإسلام فكما يقول الإمام الرازى : إن العمدة أن الله سبحانه غير متناه فى الذات والصفات ، والعقل متناه فى الذات والصفات ، والمتناهى لا سبيل له إلى إدراك غير المتناهى . . فالعقل عاجز عن معرفة كون الله تعالى قديماً أزلياً ، وذلك لأن كل ما يستحضره العقل إستحضاراً على سبيل التفضيل من مقادير الأزمنة فذلك متناه ، مثلا نفرض قبل هذا الوقت ألف ألف سنة ، ونفرض بحسب كل لحة من هذه المدة ألف ألف سنة ، وهكذا إلى أقصى ما يقدر الوهم والخيال على إستحضاره . ثم إذا تأمل العقل عرف أن كل ذلك قضاه ، والحق إنما كان قديماً أزليا لأنه كان موجوداً قبل هذه المدة التى أحاط العقل والخيال بها . فثبت أن كل مقدار يصل إليه العقل والخيال فالحق سبحانه ليس قديما بإعتبار أنه كان موجوداً فى ذلك الوقت ، بل بإعتبار أنه موجود فيما وراء ذلك ، فإذن لا سبيل للعقل ألبتة إلى معرفة القدم والأزل . . وكل ما يشير إليه العقل فأزليته وأبديته رحبتان عن ذلك المقصود .

فالمنهج النبوى على هذا الأساس يدرب الناس على ألا يمنحوا العقل كل الثقة فيما يتصل بالغيب ومعرفة حقائقه ، وعلى أن صنعة العقل إنما هى النظر فى دلائل الغيب المبثوثة فى الكون حتى تكون حجة للتسليم المطلق ، ولتنشيط العمل الوجدانى الذى يجب أن يتحرك مع العمل العقلى فى إتجاه المسيرة الإسلامية العالمية . وإلا فإن العقلانية المجردة متوقفة لا محالة بركب الإيمان عن الوصول إلى غايته ، محرومة بالقطع من معجزات التأييد الإلهية الموعودة للمؤمنين ، والتى نفذ طرف منها أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم

أقول : إن التسليم الوجدانى العميق مع العمل العقلى فى النظر فى الدلائل ينتج إنسانا مؤمنا لا نجده فى عصرنا الحاضر إلا نادراً بينما كان موجوداً على صورة أوسع أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ذاك إلا لأن العقلانية إنتهت بنا إلى الحرفية ، فحرمتنا من ثمرات الأعمال التى تعتبر فى

نهايتها صلة وثيقة بالله يعاجل الله أهلها بالعون والتأييد ، وصنع المعجزات .

فمن الثابت أن أحد الصحابة قرأ الفاتحة على من لدغه ثعبان فبرأ من السم ، ومن الثابت أن أسيد بن حضير قرأ القرآن فرآى مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، وأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم أنها الملائكة دنت لقراءته ، ومن الثابت أن هذا النحو فى الحركة الوجدانية كان يحتاج من الرسول صلى الله عليه وسلم فى عصره إلى كبح وتعديل فى كثير من أصحابه.. فهو القائل لحنظلة الأسدى : « ساعة وساعة » . وهو الذى أمر عثمان بن مظعون وجماعة أن يرجعوا عن عزمهم على الاختصاء والتبتل ، وهو الذى شجع الذين أبرأوا المسموم وأخذوا بعض الغنم على عملهم فقال : «اضربوا لى معكم بسهم » .

ولكن أرونى قارئا للقرآن يقرأ القرآن كله ليبرأ من به صداع لا ايبرأ مسموم . . وأرونى قارئا للقرآن يستنزل ملا كا واحدا يستمع لقراءته ، وأرونى جماعة مجاهدة تؤازرها الملائكة المسومون فى حربها . . سوف نسمع الكثير من القصص الكاذب فى هذا المجال ، لأن صفات أصحابه ليست هى الصفات التى تتيح لها هذا العون العجيب والمعجز من الله . . ولكن الحق أن مثل هذا الإنسان إن وجد فى العصور المتأخرة فهو الواحد فى الدولة ، أو الواحد فى العصر ، والنادر على هذه الصورة لا حكم له ، ولا نتيجة لعمله إلا فى محيطه الضيق ، وليس على مستوى مسيرة الإسلام ، ومستوى العمل الإسلامى كله .

* * *

لا إله إلا الله فى القرآن :

خير من كشف عن منهج القرآن فى حركة العقيدة الإسلامية على طريق العمل الإسلامى هو الإمام فخر الدين الرازى فى هذا الكتاب .

فهو يكشف عن ناحية يتحتم على المعنيين بالحركة الإسلامية والمخططين لها والكاتبين فيها أن يعتبروها بالمقام الأول من عملهم وفكرهم وكتاباتهم ، لأنها منهج القرآن ، وطريقة السلف ، غشاها ما غشى القلوب من ران المتاع

الدنيوى الذى تحول بالفكر إلى ما يخدم الرفاهية المزعومة فى الإسلام ، وصدق أولئك الحائدون أنفسهم ، وكذبوا غيرهم ، وفى أحسن أحوالهم نافقوا الله فأقروا بألسنتهم ، وخالفوا بأهوائهم ، تارة باسم العصرية ، وتارة باسم التقاليد ، وتارة تحت شعار (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده).. وفرق بين تحريم الزينة وبين الإغراق فيها . فكما أن تحريم الزينة حرام ، فكذلك الإسراف فيها يسبغ على صاحبها أخوة الشيطان (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) .

أقول : إن عشق الحياة بالقلوب هو الذى جعل المفكرين يتشبثون بها : ويجنحون فى طريقة تفكيرهم إلى طريق غير طريق القرآن .

فالإجماع من السلف على أن الطريق الأمثل هو العناية بالأصول قبل العناية بالفروع والأصول الإسلامية تجمعها كلمة (لا إله إلا الله) . تلك الكلمة التى أمضى الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما من عمر الدعوة البالغ ثلاثة وعشرين عاما فى ترسيخها وتعليمها وتثبيتها فى القلوب ، ثم بعد ذلك بدأت التشريعات المتفرعة عنها . ولو انعكس الحال لانعكس حال الدعوة إلى غير ما هو ثابت فى التاريخ تماما . . هذا هو الحق الذى أجمعنا عليه .

والذى يحزن النفوس ويحز فى القلوب : أن تخيب الآمال فى شباب الإسلام حينما يضعون أنفسهم فى غير مواضعها فعلى الرغم من أنهم لم يتقنوا العقيدة الإسلامية عقليا ووجدانيا فهم يعتقدون أنهم أتقنوها بما لم يتقنه قبلهم أحد ، ولا يلحقهم به غيرهم ، وإن تتبعت قراءاتهم فى موضوع العقيدة فستجدها كتبا لا هم لها إلا الخوض فى التشابه من آيات الصفات كالاستواء على العرش ، واليد والوجه والعين وغير ذلك من الموهمات التى يضل بها الكثير ويهتدى بها الكثير .

ولقد التقى بى أحدهم متماوتا من آثار التقوى والخوف فيما يزعم ، وهو يحمل بيده كتابا كتبه وسعى لينشره فى دار من دور النشر . . فلما تصفحت ما كتب وجدته يرمى المسلمين بالكفر والضلال ؛ويدعو إلى العنف والثورة اقتداء بثورة كذا وثورة كذا .

وأحزنني أن تستحكم العاطفة وتسيطر على العقل فى أمر من أخص أمور الحركة الإسلامية . فالحق واحد لا يتعدد ولا يتجزأ ، والشيء إما أن يكون حقا وإما أن يكون باطلا ، أما أنه حق من جهة وباطل من جهة فهذا مالا يعرفه الإسلام .

بعد هذه المقدمة قلت له : الثورة على الحاكم المسلم لا يجوز بحكم الأمر النبوى إذا عطلت المساجد وأسكت المؤذنون ، ومنعت الصلاة . وفى غير هذه الحالات : لا تجوز ، بل على المسلمين السمع والطاعة والدعاء بالهداية لهم . هذا ما قاله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . فإن أحببتم أن تخدموا الإسلام فعلموا الناس على منهج الإسلام ، حتى تنشأ أعداد هائلة من الذين تربوا فى حجر الإسلام ، وحينئذ لا يجد الحاكم الظالم له معينا ، فيخضع لحكم الأغلبية ، وتبقى قاعدة الدولة بعيداً عن عواصف السياسة العالمية التى تتربص بمكان خلا حتى تتسلل إليه .

قال : ونحن نقوم بذلك ونقرأ كتب السلف فى العقيدة . وأرانى كتاباً خاصاً بالبحث فى المتشابه والخوض فيه ، وإن كان لا ينحو منحى السلف من التسليم دون بحث ولا نقاش ولا تأويل .

قلت : وماذا استفدت من هذا الكتاب ؟

قال : استفدت أن هذه الألفاظ لها معنى آخرى . فاليد معناها القدرة .

قلت : كذب من قال ذلك . وصدق الله حين قال (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) . إن قلت إن اليد معناها القدرة ، فما معنى اليدين فى قوله : (لما خلقت بيدى) وما معنى الأيدى فى قوله : (والسماء بنيناها بأيد) . على قولك يكون معناها : لما خلقت بقدرتين . وبنيناها بقدرات . وقدرة الله واحدة لا تتعدد ، والقول بتعددها كفر صريح وانتهى الأمر دون جدوى .

ولكن الذى بعث الأمل فى نفسى مدرس من الشرقية يرى أن تربية جيل مؤمن هو الطريق الأمثل لخدمة الإسلام ، وليس العنف والثورة ،

واتخذ لذلك طريقاً ، وخطط له خططاً ناجحة .

ولنعد إلى منهج القرآن كما كشف عنه الإمام الرازى فى قوله تعالى : **(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك)** . فقدم العلم بالأصول على الاستغفار .

وهذا هو منهج الأنبياء جميعاً ، وأولهم إبراهيم الخليل عليه السلام الذى قال : **(رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين)** . فالحكم هو القوة النظرية لمعرفة الحقائق . والصلاح علم العمل فى الفروع

وموسى قال له ربه : **(إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى)** . فقدم العلم بالله على العمل فى العبادة . وعيسى قال : (إنى عبد الله آتانى الكتاب). فعبوديته لله إشارة إلى الأصول والكتاب إشارة إلى الفروع .

أما الطريق إلى تثبيت هذه الأصول فهو وارد فى سورة البقرة فى خمسة أنواع من الدلائل هى كل الحركة العقلية والجسدية فى علم العقيدة . أولها (اعبدوا ربكم الذى خلقكم) . وذلك هو النظر فى النفس ودلائلها على وجود الله . وثانيها (والذين من قبلكم) . وهو النظر التاريخى فى أحوال الآباء والسابقين . وهو يشمل النظر التاريخى ودراسة الآثار ، والكشف عن أصل الخلق . قال تعالى : **(أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم)** . وقال : **(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق)** . وثالثها أحوال أهل الأرض **(الذين جعل لكم الأرض فراشا)** . والنظر فيها وفى باطنها . ورابعها أحوال السماء وما فيها (والسماء بناء) . وخامسها : ما بين السماء والأرض من حوادث (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم) . ثم رتب المطلوب على هذه للدلائل الخمسة **(فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون)** .

وقد فصل الرازى رحمه الله تفاصيل تلك الدلائل تفصيلا يدفعك إلى اليقين فى رفق واقتناع بالتسليم الغيبى والنشوة مما اكتسب الناظر فى القرآن من علوم وأسرار .

ولكن الذى نريد أن نقوله هنا : إن العقيدة ليست عقيدة صماء ، بل هى حركة فى داخل النفس ، وفى داخل التاريخ ، وفى عنان السماء ، وفى الاتصال بين السماء والأرض وهذه الحركة الصعودية النزولية كفيلة باليقين إن شاء الله .

أسرار لا إله إلا الله

الفصل الأول

فى أسرار كلمة لا إله إلا الله

قال الله سبحانه وتعالى لرسوله : **(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)** .[١] .

اعلم أن الله تعالى قدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ، والسبب فيه : أن معرفة التوحيد إشارة إلى علم الأصول ، والاشتغال بالاستغفار إشارة إلى علم الفروع ، والأصل يجب تقديمه على الفرع ، فإنه مالم يعلم وجود الصانع امتنع القيام بطاعته وخدمته . وهذه الدقيقة معتبرة فى آيات كثيرة :

أولها : أن إبراهيم عليه السلام لما اشتغل بالدعاء قدم المعرفة على الطاعة فقال : **(رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين)**[٢] . فقوله : (رب هب لى حكماً) إشارة إلى استكمال القوة النظرية بمعرفة حقائق الأشياء ، وقوله : (وألحقنى بالصالحين) إشارة إلى استكمال القوة العلمية[٣] بالاجتناب عن طرفى الإفراط والتفريط . فقدم العلم على العمل .

وثانيها : أنه تعالى لما أوحى إلى موسى عليه السلام راعى هذا الترتيب . فقال : **(وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى)**[٤] . فقوله : (لا إله إلا أنا) إشارة إلى علم الأصول ، وقوله : (فاعبدنى) إشارة إلى علم الفروع .

---

(١) سورة محمد / ١٩ . (٢) الشعراء : ٨٣ .

(٣) فى د (القوة العملية / . والسياق يقتضى ما فى ج . إذ أن القوة العلمية وهى النظرية ، هى التى تستكمل بالعمل بعيداً عن الإفراط والتفريط . فهذا العمل استكمال لقوة النظر .

(٤) سورة طه / ١٣ ، ١٤ .

وثالثها : أن عيسى عليه السلام لما أنطقه الله تعالى فى وقت الطفولية قال : **(إنى عبد الله آتانى الكتاب)** . فقوله : (إنى عبد الله) إشارة إلى علم الأصول[١] ، وقوله : (آتانى الكتاب) إشارة إلى علم الفروع ، فإن احتياجه[٢] إلى الكتاب إنما يكون فى معرفة الأحكام والشرائع ، لا فى معرفة ذات الله تعالى وصفاته .

ورابعها : الآية التى نحن فيها[٣] .

ولا نزاع فى أن أفضل الأنبياء والرسل عليهم السلام هؤلاء الأربعة ، فلما ثبت أن الله تعالى قدم الأمر بمعرفة الأصول على معرفة الفروع فى حق هؤلاء الأنبياء المكرمين : ثبت أن الحق الصحيح الصريح ليس إلا ذلك ، ومما يؤكد ذلك وجوه أخر :

* * *

الوجه الأول :

أن أكثر المفسرين أجمعوا على أن أول آية أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم هى قوله : **(اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم)**[٤]. وهذه الآية مشتملة على دلائل التوحيد . وذلك لأن أظهر الدلائل الدالة على وجود الصانع الحكيم : تولد الإنسان من النطفة . ثم إنه تعالى نبه فى هذه الآية على لطيفة عجيبة ، ولا يتأتى شرحها إلا فى معرض السؤال والجواب .

---

(١) لأنه لا عبودية إلا بعد معرفة المعبود .
(٢) فى ج / (الاحتياج خطأ . فاحتياج المسيح خاصة إلى الكتاب لا يكون لمعرفة الذات ، بل لمعرفة الأحكام أما الاحتياج العام من الناس فهو للمعرفة ولمعرفة الأحكام جميعاً .
(٣) وهى خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم حسب سياق الآيات .
(٤) سورة العلق / ١ — ٥ .

فإن قال قائل : لابد من رعاية النظم بين أجزاء الكلام ، وهاهنا ذكر أنه تعالى يولد الإنسان من النطفة فقال : (الذىخلق . خلق الإنسانمنعلق). ثم ذكر بعده أنه (علم الإنسان مالم يعلم) . فأى مناسبة بين هذينالأمرين ؟

والجواب : أن أخس مراتب الإنسان وأدناها : العلقة ، وذلك لأنه يستقذرها كل أحد . وأعلا المراتب وأشرفها : كون الإنسان عالما محيطا بحقائق الأشياء ، كأنه قال : عبدى ، تأمل إلى أول حالك حين كنت علقة ؛ وهى أخس الأشياء : وإلى آخر حالك حين صرت ناطقا عالما بحقائق الأشياء ، وهوأشرف المراتب ، حتى يظهر لك أنه لا يمكن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الدرجة الرفيعة الشريفة إلا بتدبير أقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون[١] .

* * *

الوجه الثانى :

أنه تعالى مدح المؤمنين فى سورة البقرة من أول السورة إلى قوله : **(أولئك هم المفلحون)**[٢] . وذم الكافرين فى آيتين : أولها قوله : **(إن الذين كفروا)** إلى قوله : **(ولهمعذاب عظيم)**[٣] ثم ذم المنافقين فى ثلاث

---

(١) والتدرج مذكور فى الآية . فالله تعالى يقول : (وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم (فالعلم الذى يكتسبه الإنسان من الحروف والكلمات المخطوطة بالقلم مرتبط بكرم الرب الأكرم ، وليس اكتساباً خالصاً للإنسان .

وفى الآية إشارة أخرى . وهى أن القراءة الأولى لما هو وحى مباشر من الله لرسوله وإلينا . والقراءة الثانية لما هو من العلوم الإنسانية العقلية التى لا يجوز أن تنفصل عن المنهاج الإلهى ، ولا عن الاعتراف بالمنة لله تعالى ، وإلا حدث الفصل بين السلوك الإنسانى والعقيدة الإلهية .

(٢) سورة البقرة /١—٥

(٣) سورة البقرة/٦ ، ٧ .

عشرة آية : أولها قوله تعالى : (**ومن الناس من يقول آمنا بالله**)[١] إلى قوله : **يا أيها الناس اعبدوا ربكم**)[١]. ثم لما مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين كأنه قيل : هذا المدح والذم لا يستقيمان إلا بتقديم الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، فإن أصول الإسلام هى هذه الثلاثة . فلهذا السبب بين الله تعالى صحة هذه الأصول بالدلائل القاطعة .

فبدأ أولا بإثبات الصانع وتوحيده، وبين ذلك بخمسة أنواع من الدلائل : **أولها** أنه استدل على التوحيد بأنفسهم ، وإليه الإشارة بقوله : (**اعبدوا ربكم الذى خلقكم**)[٢] . **وثانيها** بأحوال آبائهم وأجدادهم ، وإليه الإشارة بقوله : (**والذين من قبلكم**)[٢] . **وثالثها** بأحوال أهل الأرض : وإليه الإشارة بقوله : (**الذى جعل لكم الأرض فراشا**)[٢] . **ورابعها** بأحوال أهل السماء ، وإليه الإشارة بقوله : (**والسماء بناء**)[٢] . **وخامسها** بالأحوال الحادثة المتعلقة بالسماء والأرض ، وإليه الإشارة بقوله : (**وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم**)[٢] . فإن السماء كالأب ، والأرض كالأم : ينزل المطر[٣] من صلب السماء إلى رحم الأرض ، فيتولد منها أنواع النبات . ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : **فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون**) .

وذلك : أن هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : (**فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون**) . وذلك : أن هـــذه الدلائل تدل على وجود الصانع من وجه ، وعلى كونه تعالى واحدا من وجه آخر ، فإنها من حيث أنها حدثت مع جواز ألا تحدث ، ومع جواز أن تحدث على خلاف ما حدثت[٤] به يدل على وجود الصانع القادر . ومن حيث أنها حدثت لا على وجه الخلل

---

(١) سورة البقرة / ٨ – ٢١

(٢) سورة البقرة / ٢١ – ٢٢

(٣) على هامش ج (ينزل قطره) . من نسخة أخرى .

(٤) يريد : أنها ممكنة ، وليست واجبة بذاتها لأنها متغيرة يجوز عليها التبديل .

والفساد دلت على وحدة الصانع القادر[١] ، كما قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[٢] فلهذا السبب ذكر بعد تلك الدلائل ذينك المطلوبين : أحدهما إثبات الصانع ، والثانى إثبات كونه واحـــدا ، لأن قوله تعالى : (**فلا تجعلوا لله أندادا**)[٣] يشتمل على إثبات الإله ، وعلى إثبات كونه واحـــدا .

ثم ههنا لطيفة أخرى مرعية فى هذه الآية : وهى : أن الترتيب الحسن المفيد فى التعليم أن يقع الابتداء فى التعليم من الأظهر فالأظهر ، مرتقيا إلى الأخفى فالأخفى . وهذه الدقيقة مرعية فى هذه الآية . وذلك أنه سبحانه وتعالى قال : (اعبدوا ربكم الذى خلقكم) . فجعل استدلال كل عاقل بنفسه مقدما على جميع الاستدلالات ، لأن اطلاع كل أحد على أحوال نفسه أتم من اطلاعه على أحوال غيره : فسيجد بالضرورة من نفسه [أنه] تارة يكون مريضا ، وتارة صحيحا ، وتارة ملتذا ، وتارة متألما ، وتارة شابا : وتارة شيخا . والانتقال من بعض هذه الصفات إلى غيرها ليس باختيار أحد من البشر .

وأيضا فقد يجتهد فى طلب كل شىء فلا يجد ، وكثيرا ما يكون غافلا عنه فيحصل ، وعند ذلك يعلم كل أحد عند نقض العزائم وفسخ الهمم : أنه لابد من مدبر يكون تدبيره فوق كل تدبير البشر . وربما اجتهد العاقل الذكى فى الطلب فلا يجد ، والغرّ الغبى يتيسر له ذلك المطلوب . فعنـــد هذه الاعتبارات يلوح له صدق قول الشافعى رضى الله عنه .

ومن الدليل على القضاء كونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ويظهر له أن هذه المطالب إنما تحصل وتتيسر بناء على قسمة قسام

---

(١) وذلك من حيث وحدة الخطة التى قام على أساسها الخلق فى كل شىء ، من الصغير إلى الكبير .
(٢) سورة الأنبياء /٢٢
(٣) سورة البقرة /٢٢

لا يمكن منازعته ولا مغالبته[1] ، كما قال سبحانه وتعالى : **(نحن قسمنا بينهم معيشتهم)**[2] .

ثم إن هذه الاعتبارات غير محصورة ، فتارة كما فى قوله تعالى : **(أمن يجيب المضطر إذا دعاه)**[3] . وأخرى كما فى قوله : **(قل من يكلؤكم بالليل والنهار)**[4] . وبالجملة ، فلما كان اطلاع كل أحد على أحوال نفسه أشد من اطلاعه على أحوال غيره ، لا جرم قدم هذا الدليل على سائر الدلائل .

ثم هذه المراتب يتلوها مرتبة أخرى ، وهى علم كل أحد بأحوال آبائه وأجداده وأهل بلده . ثم هذه المرتبة الثانية تتلوها مرتبة ثالثة ، وهى معرفة الإنسان بأحوال الأرض التى هى مسكن الخلائق ، فإنها مختلفة الأجزاء ، كما قال : **(وفى الأرض قطع متجاورات)** .[5] وقال أيضاً : **(ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود)**[6] ثم هذه المرتبة الثالثة تتلوها مرتبة رابعة وهى : العلم بأحوال الأفلاك ، فإن بعضها يخالف البعض فى العلو والسفل ، والصغر والكبر ، والبطء والسرعة ، واختلاف أحوال الكواكب المذكورة فيها ، كما قال : **(كل فى فلك يسبحون)**[7] وقال : **(رب المشرق والمغرب)**[8] .

---

(١) وأيضاً تدل على افتقار الوجود كله إلى المدبر الحكيم ، من حيث أن ما تعارف عليه الناس من قواعد السبب والنتيجة قد ينخرم لإثبات الفقر للكائنات . وانظر (الأمد الأقصى) لأبي زيد الدبوسى فى باب الفقر ، وباب العبودية لاستكمال الموضوع . خط ٧٤٥ تصوف دار الكتب .

(٢) سورة الزخرف / ٣٢ .

(٣) سورة النمل /٦٢ .

(٤) سورة الأنبياء /٤٢ .

(٥) سورة الرعد / ٤ .

(٦) سورة فاطر / ٢٧ .

(٧) سورة الأنبياء / ٣٣ .

(٨) سورة المزمل / ٩ .

وقال : (**رب المشرقين ورب المغربين**) [١] . وقال : (**فلا أقسم برب المشارق والمغارب**) [٢] . وقال : (**والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره**) [٣] . وقال : (**تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا**) [٤] . وقال فى سورة نوح : (**ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نورا**) [٥] . وقال فى سورة يس : (**لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون**) [٦] . وقال : (**فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس**) [٧] .

ثم بعد هذه المرتبة الرابعة مرتبة خامسة ، وهى الأحوال المنزلة من السماء إلى الأرض ، وهى نزول المطر [٨] من صلب السماء ، ووقوعه فى رحم الأرض ، ثم بعد ذلك يحدث فى الأرض الواحدة أنواع من النبات بحيث يخالف كل واحد منها صاحبه فى الشكل والطعم [٩] والخاصية . فمنه ما يكون قوتاً ، ومنه ما يكون فاكهة ، ومنه ما يكون دواء ، ومنه ما يكون إداماً ، ومنه ما يكون سماً ، ومنه ما يكون علفاً ، لسائر الحيوانات . فذكر فى تفصيل المطعومات قوله : (**أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حباً وعنبا وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولأنعامكم**) [١٠] . وقال : **إن الله فالق الحب والنوى**) [١١] .

---

(١) سورة الرحمن ١٧ .
(٢) سورة المعارج / ٤٠ .
(٣) سورة الأعراف / ٥٤ .
(٤) سورة الفرقان / ٦١ .
(٥) سورة نوح / ١٨ .
(٦) سورة يس / ٤٠ .
(٧) سورة التكوير / ١٥ ، ١٦
(٨) فى ج (نزول القطر) .
(٩) فى ج (والطبع) . وما أثبتناه من نسخة أخرى هامش ج وكذا فى د .
(١٠) سورة عبس / ٢٥ — ٣٢ .
(١١) سورة الأنعام / ٩٥

بل إذا نظرت إلى ورقة واحدة من أوراق الورد وجدت أن أحد وجهيها فى غاية الحمرة ، والوجه الآخر فى غاية الصفرة [١] ، مع أنها تكون فى غاية الرقة ، وقلة الثخانة ، ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة تأثير الكواكب وحركات الأفلاك والطبائع إلى كل واحد من وجهى تلك الورقة الرقيقة جداً من الورد نسبة واحدة . فاختصاص أحد وجهى تلك الوردة بالحمرة ، والآخر بالصفرة لا بد وأن يكون لأجل القادر المختار الذى يفعله بالعلم والقدرة ، لا بالعلية والطبيعة .

وإذا عرفت ذلك ظهر لك أن الله تعالى فى ترتيب هذه الدلائل الخمسة ، وتقديم بعضها على بعض حكمة بالغة ، وأسرارا مرعية ، فسبحان من لا نهاية لعلمه ، ولا غاية لحكمته .

ثم إن الله تعالى لمـا بين دلائل إثبات الصانع ووحدانيته أردف هذه المسألة بمسألة إقامة الدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : (**وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله**) [٢] . وذلك لأن المتحدى به وقع بكل القرآن فى قوله : (**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**) [٣] . فلما عجزوا عن معارضة كل القرآن أتبعه بالتحدى بعشر سور من القرآن فقال : (**فأتوا بعشر سور مثله مفتريات**) [٤] . فلمـا عجزوا عنـه أتبعه بالتحدى بسورة واحدة فقال : (**فأتوا بسورة من مثله**) [٥] . فلما

---

(١) ليس الوجه الآخر فى غاية الصفرة ، بل هو فى غاية الخضرة ، ولعلها كانت فى أرضهم خضرة باهتة فأطلق عليها الصفرة . وانظر (العبر والاعتبار) المنسوب للجاحظ والمحفوظ بمخطوطات جامعة القاهرة ، ففيه مثات الدلائل المشابهة لهذا فى إثبات التدبير ، وإبطال الصدفة . رقم (١٥٨٧) وقد سرق أحد الشباب هذا الكتاب وطبعه منسوباً إلى نفسه أخيراً .

(٢) سورة البقرة / ٢٣ .

(٣) سورة الإسراء / ٨٨ .

(٤) سورة هود / ١٣ .

(٥) سورة البقرة / ٢٣ .

عجزوا أتبعه بالتحدى بآية فقال : (**فليأتوا بحديث مثله**)[١] : فلما عجزوا عنه مع توافر الدواعى ظهر كونه معجزاً باهراً ، وبرهاناً قاهراً[٢]

ثم إنه أتبع هذه المسألة بمسألة المعاد ، وهى قوله : (**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار**)[٣] . كأنه قيل : إنما قدمنا مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين ، ولو لم يكن معاد يجد المحسن ثمرة إحسانه ، ويجد المسىء عاقبة إساءته ، لم يكن ذلك لائقاً بحكمته ، وهذا هو المراد من قوله : (**ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى**)[٤] . وقال فى سورة طه : (**وأقم الصلاة لذكرى إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى**)[٥] . وقال فى ص : (**أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار**)[٦] .

فظهر بما ذكرنا : أنه تعالى لم يذكر فى أول كتابه إلا دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، فثبت أنه لا بد من تقديم الأصول على الفروع ، فلهذا السبب قدم الأمر بالتوحيد على الأمر بالاستغفار ، فقال : (فأعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) .

الوجه الثالث فى تقرير هذا الأصل :

أنه تعالى قال فى أول سورة النحل : (**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون**)[٧] .

---

(١) سورة الطور / ٣٤ .
(٢) على هامش ج (وقرآنا قاهراً) من نسخة أخرى .
(٣) سورة البقرة / ٢٥.
(٤) سورة النجم / ٣١ .
(٥) سورة طه / ١٥ .
(٦) سورة ص / ٢٨ .
(٧) سورة النحل / ٢ .

فقوله : (لا إله إلا أنا إشارة إلى علم الأصول . وقوله : (فاتقون) إشارة إلى علم الفروع .

الوجه الرابع :

أن موسى عليه السلام لما ادعى الرسالة [١] . عند فرعون قال له فرعون : (**ومارب العالمين**)[٢]. يعنى : إن رسالتك متفرعة على إثبات أن للعالم إلهاً ، فما الدليل عليه ؟ ثم إن موسى عليه السلام لم ينكر [عليه] هذا السؤال ، بل اشتغل بذكر الدلائل على وجود الصانع ، فقال : (**ربكم ورب آبائكم الأولين**) [٣] . فاستدل على وجود الصانع أولا بأحوال نفسه ، وثانياً بأحوال آبائه ، وهو نظير قوله فى سورة البقرة : (**اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم**) .

فظهر بما ذكرنا من الوجوه القائدة فى أنه تعالى ذكر أولا قوله : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) . وذكر ثانياً قوله : (واستغفر لذنبك) . والله أعلم بحقائق كتابه . فهذا ما يتعلق بالدلائل القرآنية الدالة على [وجوب] تقديم علم الأصول على علم الفروع . ويؤكد هذا المعنى[٤] بعشرة حجج أخرى :

[الحجة] الأولى : وهى أن شرف العلم بشرف المعلوم ، فمها كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف ، ولما كان أشرف المعلومات ذات البارى تعالى وصفاته ، وجب أن يكون معرفته وتوحيده أشرف العلوم .

الحجة الثانية : أن العلم إما أن يكون دينياً ، أو يكون غير دينى .

---

(١) كان الأليق بالمؤلف أن يقول : (لما أعلن الرسالة) ، فهو مأمور بقوله تعالى : (اذهبا إلى فرعون إنه طغى) . الآيات .

(٢) سورة الشعراء / ٢٥ .

(٣) سورة الشعراء / ٢٦ .

(٤) فى الأصلين : (ويؤكد هذا الوجه) . واخترنا ما على هامش ج من نسخة أخرى .

ولا شك أن العلم الديني أشرف من غير الديني . وأما العلم الديني فإما أن يكون علم الأصول أو ما عداه . أما ما عدا علم الأصول فإن صحته متوقفه (١) على صحة علم الأصول ، لأن المفسر إنما يبحث عن معاني كلام الله تعالى ، وذلك فرع على معرفة الصانع المختار المتكلم . وأما المحدث فإنما يبحث عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك فرع على إثبات نبوته (٢). والفقيه يبحث عن أحكام الله تعالى ، وذلك فرع على ثبوت التوحيد والنبوة . فثبت أن هذه العلوم مفسرة إلى علم الأصول . وظاهر أن علم الأصول غنى عنها بأسرها (٣) ، فوجب أن يكون علم الأصول أشرف .

الحجة الثالثة : أن شرف الشيء قد يظهر بواسطة خساسة ضده ، فكلما كان ضده شيئاً أخس ، كان هو أشرف ، ولا شك أن ضد علم الأصول هو الكفر والبدعة ، وهما من أخس الأشياء ، فوجب أن يكون علم الأصول من أشرف العلوم .

الحجة الرابعة : أن شرف العلم تارة يكون لشرف موضوعه ، وتارة لشدة الحاجة إليه ، وتارة لقوة براهينه ودلائله ، وذلك : أن علم الهيئة أشرف من علم الطب ، مع أن الحاجة إلى الطب أشد ، وعلم الحساب أشرف منهما ، من حيث أن موضوع علم الهيئة أشرف من موضوع علم الطب (٤) وإن كان علم الطب أشرف من حيث أن براهين هذا العلم أقوى وعلم الأصول مجتمع لهذه الخصال (٥) .

---

(١) على هامش ج (موقوفة) من نسخة ثانية .

(٢) وإثبات البنوة لا يكون إلا بالإيمان بالله الذى أرسل الرسل .

(٣) علم الأصول غنى عن النبوات والأحكام من حيث أن العلم به لا يتوقف على العلم بهما . بينما العلم بالنبوات والأحكام يتوقف على العلم بالأصول . أما فى عقيدة المسلم فالمسلم لا يستغنى عن أحد الثلاثة .

(٤) يعنى أن علم الحساب مرتبط بعلم الهيئة ، ولا ينتج علم الهيئة نتائجه إلا بالحساب ، فكان أشرف من الهيئة والطب معاً .

(٥) أى يجمع : الحاجة إليه ، وشرف الموضوع ، وقوة البراهين .

أماشرف هذا الموضوع فذلك لأن المبحوث عنه ذات الله تعالى وصفاته، وقدرته وعظمته ، ولا شك فى أنه أشرف ، وأما شدة الحاجة إليه فظاهر (وذلك)[١] لأن إلية الحاجة إما فى الدين وإما فى الدنيا .

أما فى الدين فلأن من عرف هذه المطالب يستحق الثواب العظيم ، ويتخلص من العقاب الأليم ، ويصير من زمرة الملائكة المقربين ، فى جوار رب العالمين . ومن جهلها صار محروما من الثواب العظيم ، مستوجبا للعقاب الأليم ، وصار من زمرة الأبالسة والشياطين ، وبقى فى دركات الضلالة أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

وأما فى الدنيا فلأن معظم مصالح العالم إنما تنتظم بسبب الرغبة فى الثواب ؛ والرهبة من العقاب[٢] ، وإلا لوقع الهرج والمرج فى العالم .

وأما قوة براهين هذا العلم فلأن براهينه مركبة من المقدمات البديهية الضرورية ، وهى أقوى العلوم والمعارف . فثبت أن علم الأصول مستجمع خصال الشرف ، فوجب أن يكون أشرف العلوم .

الحجة الخامسة : أن هذ العلم لا يتطرق إليه النسخ والتغيير[٣] ، ولا يختلف باختلاف النواحى والأمم ، بخلاف سائر العلوم ، فوجب أن يكون أشرف العلوم .

الحجة السادسة : أن الإنسان لا يكون من أهل النجاة والدرجات إلا مع هذا العلم ، وقد يكون من أهل النجاة[٤] وإن لم يعلم شيئا من الفقه أصلا

---

(١) ما بين الحاصرين على هامش (ج) من نسخة أخرى .

(٢) ليس الثواب والعقاب الأخروى فقط ، بل ثواب الدنيا وعقابها ، من استقرار الحياة ، وازدهار الحضارة أو خرابها تبعاً للسير على منهاج القرآن أو الجنوح عنه ، والحضارات البائدة بسبب الجهل بأصول الدين مذكورة فى القرآن ، وقد أبيدت بعوامل غيبية كالصاعقة والريح العقيم وصيحة والخسف والجدب والجفاف .

(٣) هذا فى أصل التشريع لا عند الناس ، وإلا فقد نسخ الناس من تلقاء أنفسهم وغيروا فى أصول العقيدة ما هو مذكور فى الكتاب والسنة .

(٤) على هامش ج من نسخة أخرى وفى د (المدرجات (. والسياق يقتضى ما فى ج .

ألبتة . أماأنه لابد فى النجاة من علم الأصول فلأن الجاهل بالله البتة لايكون من أهل النجاة بالإجماع . وأما أنه قد تحصل النجاة بدون الفقد ، فلأن الإنسان قبل البلوغ لا يكون مكلفا بشىء من الأعمال ، فإذا بلغ وقت الضحوة الكبرى فى هذه الساعة لم يجب عليه شىء من الصلوات والزكوات والصيامات وسائر العبادات . فلو مات فى هذه الساعة مع المعرفة والتوحيد لقى الله مؤمنا حقا . ولو قدرنا أن هذا الذى بلغ كان امرأة ، ثم لما بلغت حاضت ، وبقيت مدة أخرى فى البلوغ ، وهى غير مكلفة لا بالصلاة ولا بالقراءة[1] ، فاذا انقضى زمان حيضها وماتت فهى قد لقيت حضرة الله مؤمنة حقا . فعلمنا أن النجاة ، واستيجاب الدرجات ، لايتوقف على الفقه ، وهو موقوف على علم الأصول .

الحجة السابعة : أن الآيات المشتملة على دلائل علم الأصول أشرف من الآيات المشتملة على دلائل علم الفروع ، بدليل أنه قد جاء فى فضيلة (قل هو الله أحد)[2] و(آمن الرسول)[3] وآية الكرسى ؛ و(شهد الله)[4] مالم يجىء فى فضيلة قوله تعالى : (ويسألونك عن المحيض)[5] و (أحل الله البيع)[6] و (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين)[7] الآية . ولذلك فإن الزهاد والعباد يواظبون فى شرائف الأوقات على قراءة هذه الآيات المشتملة على الإلهيات ، دون الآيات المشتملة على الأحكام .

الحجة الثامنة . أن الآيات الواردة فى الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آيه ، وأما اللواتى فى بيان التوحيد والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين وفى إثبات النبوات والمعاد ، ومسألة القضاء والقدر فكثيرة .

---

(١) وهى مدة الحيض .
(٢) سورة الإخلاص / ١
(٣) البقرة / ٢٨٥ وما بعدها .
(٤) سورة آل عمران /١٨ .
(٥) سورة البقرة / ٢٢٢ .
(٦) سورة البقرة / ٢٧٥ .
(٧) سورة البقرة / ٢٨٢

وأما الآيات الواردة فى القصص فالمقصود منها إما التوحيد، وإما النبوة أما التوحيد فهو . الإستدلال على قدرة الله وعظمته وحكمته ، كما قال : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى) [١] .
وأما على النبوة فمن وجهين :

الأول : بألفاظ مختلفة كما قال فى سورة الشعراء بعد ذكر القصص (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين)[٢] . ووجه الاستدلال : أنه عليه السلام لما لم يتعلم علما ، ولم يقرأ كتابا ، ولم يتلمذ لأستاذ ، استحال منه رواية القصص إلا عن وحى الله وتنزيله .

والثانى : أنه يذكر القصة الواحدة مرارا مختلفة بألفاظ مختلفة ، وكل ذلك متشابهة فى الفصاحة ، مع أن الفصيح إذا ذكر القصة الواحدة مرة واحدة بالألفاظ الفصيحة ، عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى بالألفاظ الفصيحة ، فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله لا من عند البشر. فدل [ذلك] على أن معظم القرآن فى علم الأصول ، فلنشر إلى معانى الدلائل[٣] :

أما دلائل التوحيد فتارة بانخلاق الإنسان من النطفة ، والله تعالى ذكر هذا الدليل أكثر من ثمانين مرة فى القرآن . وتارة بدلائل الآفاق ، وهى أحوال الأرض والسماء والهواء والنبات ، وهى أظهر من أن تحتاج إلى الشرح .

وأما الدلائل الدالة على الصفات فنقول : أما الذى يدل على العلم فقوله تعالى : (إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) [٤] . ثم

---

(١) سورة يوسف / ١١١ .
(٢) الشعراء / ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٣) فى ج (معاد الدلائل) .
(٤) سورة آل عمران / ٥ .

أردفه بقوله : (**هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء**)(١) . وهذا هو دليل المتكلمين ، فإنهم يستدلون بأحكام الأفعال وإتقانها على علم الفاعل ، وههنا استدل سبحانه بتصوير الصور فى ظلمات الأرحام على كون الفاعل عالما .

وقال أيضا : (**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**)(٢) . وهو غنى عن تلك الدلالة . وقال : (**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو**)(٣) . وهذا التنبيه للدلالة على كونه تعالى عالما بكل المعلومات(٤) ، لأنه تعالى يخبر عن المغيبات فتقع تلك الأشياء على وفق ذلك الخبر : وذلك يدل على كونه عالما بكل المغيبات :

وأما صفة القدرة فكل ما ذكر الله تعالى فى القرآن من الثمرات المختلفة ، والحيوانات المختلفة ، مع استواء تأثير الطبائع والأفلاك ، فإنه يدل على صفة القدرة : وسيجىء الاستقصاء فى هذه الدلائل القرآنية .

الحجه التاسعة : أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام أنهم كانوا طول عمرهم مشتغلين بهذه الدلائل ، ولنذكر ما ينبه على المقصود :

أما الملائكة عليهم السلام فإنهم لما قالوا : (**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**) . فكأن المراد من خلق هؤلاء [ليكونوا] سبب الشر والفتنة ، وذلك قبيح ، والحكيم لا يفعل القبيح(٥) . فأجابهم الله تعالى بقوله : (**إنى أعلم مالا تعلمون**) . والمعنى والله أعلم : إنى لما كنت عالما بكل المعلومات ، كنت قد علمت فى خلقهم وإيجادهم حكمة لا تعلمونها أنتم . فلما سمعوا ذلك سكتوا .

(١) سورة آل عمران / ٦ .
(٢) سورة الملك / ١٤ .
(٣) سورة الأنعام / ٥٩ .
(٤) وهذا رد على من يقول : إن الله تعالى يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات .
(٥) هم يعلمون ذلك ، ولكنهم وجدوا فى خلق آدم وخلافته شبهة فى علمهم هذا ، فأرادوا البحث عن الحقيقة بسؤالهم ، وهذا دليل على اشتغال الملائكة بدلائل التوحيد .

وأما مناظرة الله مع إبليس فالقرآن ناطق بها[١] .

وأما الأنبياء عليهم السلام فأولهم آدم عليه السلام ، وقد أظهر الله تعالى الحجة على فضله بأن أظهر علمه على الملائكة ، وذلك محض الاستدلال[٢].

وأما نوح عليه السلام فقد حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: **(يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا)**[٣] . ومعلوم أن مجادلة الرسول مع الكفار لا تكون فى تفاصيل الأحكام الشرعية ، فلم يبق إلا أنها فى التوحيد والنبوة. وأيضا فإنه عليه السلام لما أمرهم بالاستغفار فى قوله : **(استغفروا ربكم إنه كان غفارا)**[٤] ففى الحال ذكر ما يدل على التوحيد فقال : **(ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل الشمس فيهن نورا.وجعل الشمس سراجا)** [٥] .

وأما إبراهيم عليه السلام فالاستقصاء فى شرح أحواله يطول فى هذا الباب ، وله مقامات :

أولها : مع نفسه ، وهو قوله : **(فلما جن عليه الليل رآى كوكبا قال هذا ربى)**[٦] إلى آخر الآية فهذه طريقة المتكلمين . فإنه استدل بأفولها على حدوثها ، ثم استدل بحدوثها[٧] على وجود محدثها : كما أخبر الله تعالى بقوله : **(ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً)**[٨] . ثم إن الله تعالى عظم شأنه بسبب ذلك فقال :

(١) وهى تكشف عن خفيات علم الله فى آدم ، وعن إطلاق القدرة الإلهية والقهر الإلهى ، وعن الموازين الحقيقية للمخلوقات .

(٢) لم نجد من كشف عن أسرار الله فى آدم أفضل مما كتب أبو زيد الدبوسى فى (الأمد الأقصى) مخطوط بدار الكتب المصرية باب حكمة خلق الإنسان .

(٣) سورة هود / ٣١ .

(٤) سورة نوح / ١٠

(٥) سورة نوح / ١٥ ، ١٦ .

(٦) سورة الأنعام / ٧٦ .

(٧) على هامش ج (بأفولها . من نسخة ثانية . والسياق لا يقتضيه (.

(٨) سورة الأنعام / ٧٨ ، ٧٩ .

(وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء)[1] . وأيضا ذكر فى وقت دعائه ما هو محض الاستدلال : وهو قوله : (الذى خلقنى فهو يهدين . والذى يطعمنى ويسقين)[2] إلى آخر الآيات .

وثانيها : مناظرة إبراهيم مع أبيه ، وهى قوله : (ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا)[3] . إلى آخر الآيات .

وثالثها : حاله مع قومه ، تارة بالقول : وأخرى بالفعل . أما القول فقوله : (ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون)[4] . وأما بالفعل فقوله تعالى : (فجعلهم جذاذا الاكبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون)[5] .

ورابعها : حاله مع ملك زمانه ، حيث قال : (ربى الذى يحيى ويميت)[6] . إلى آخر الآية . فهذا كل مباحثة إبراهيم عليه السلام فى معرفة المبدأ .

وأما بحثه فى معرفة المعاد فهو كقوله : (رب أرنى كيف تحيى الموتى)[7] . إلى آخر الآية .

واعلم أن موسى عليه السلام كان يقول فى الاستدلال على [طريقة] دلائل إبراهيم . وذلك أنه حكى فى سورة طه أن فرعون قال له ولهرون :

---

(١) سورة الأنعام / ٨٣ .
(٢) سورة الشعراء ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) سورة مريم / ٤٢ .
(٤) سورة الأنبياء / ٥٢
(٥) سورة الأنبياء / ٥٨ .
(٦) وطلب الخليل عليه السلام لاطمئنان القلب لا يتوجه نحو أصل العقيدة ، بل على طريقة إحياء الموتى فقط بعدما تفرق أجزاؤهم وبليت . فهو مؤمن مطمئن القلب تماماً بأن الله قادر على أن يحيى الموتى ، ولكنه حائر فى طريقة الإحياء ، ويريد مزيداً من العلم بها . فهو لم يسأل ربه : هل يحيى الموتى ؟ ولكن قال : كيف تحيى الموتى ؟ .

(**فمن ربكما ياموسى**)[١] . فرد بقوله : (**ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى**)[٢] وهذا هو الدليل الذى ذكره إبراهيم عليه السلام حيث قال : (**الذى خلقنى فهو يهدينى**)[٣] . ثم حكى الله تعالى عن موسى فى سورة الشعراء أنه قال لفرعون : (**ربكم ورب آبائكم الأولين**)[٤] : وهذا هو الذى عول عليه إبراهيم عليه السلام فى قوله : (**ربى الذى يحيى ويميت**)[٥] . فلما لم يكتف فرعون بذلك ، وطالبه بدليل آخر ، قال موسى : (**رب المشرق والمغرب**)[٦] . وهذا هو الذى عول عليه إبراهيم عليه السلام فى قوله : (**فان الله يأتى بالشمس من المشرق فائت بها من المغرب**)[٧] .

وهذا ينبهك على أن التمسك بهذه الدلائل حرفة هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، ثم إن موسى عليه السلام لما فرغ من تقرير دلائل التوحيد قال : (**أو لو جئتك بشىء مبين**)[٨] . وهذا يدل على أنه عليه السلام إنما فرع بيان النبوة على بيان التوحيد والمعرفة .

وأما سليمان عليه السلام فله مقامان : أحدهما فى بيان إثبات التوحيد ، والآخر فى إثبات النبوة .

---

(١) سورة طه / ٤٩ .

(٢) سورة طه / ٥٠ .

(٣) سورة الشعراء / ٧٩ .

(٤) سورة الشعراء / ٢٦ .

(٥) سورة البقرة / ٢٥٨ .

(٦) سورة الشعراء / ٢٨ .

(٧) سورة البقرة / ٢٥٨ .

وإنما عدل إبراهيم عليه السلام عن جواب نمروذ فى دعواه الإحياء والإماتة بأنه عاجز عنهما ، لأنه قتل واحداً وترك الآخر فى المجلس ، ولجأ إلى تعجيزه من حيث الإتيان بالشمس من المغرب ، لأن مجاراته فى دعواه عبث لأنه لم يفعل حقيقة الإحياء والإماتة وإنما استعمل السبب المتاح لكل إنسان فى الإحياء والإماتة وهو القتل والاستيفاء .

(٨) سورة البقرة / ٣٠ .

أما المقام الأول فى إثبات التوحيد فهو فى قوله تعالى حكاية عنه : (**ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون**)[١] . وهذه الآية دالة على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم . أما القدرة فقوله : (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض) . وسمى الخبء بالمصدر[٢] ، وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق ، وإخراجه من السماء بالغيث ، ومن الأرض بالنبات ، وتقريره ما قدمناه[٣] وأما للعلم فيدل على ثبوته قوله : (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) .

واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس ، وتخليص الدلالة على قانون الجدل على وجهين : الأول : الإله . ويجب أن يكون قادرا على إخراج الخبء ؛ ويكون عالما بالخفيات ، والشمس ليست كذلك ، فهى لا تكون إلها . أما أنه سبحانه يجب أن يكون قادرا عالما على الوجه المذكور ، فكما أنه واجب الوجود لذاته ، فلا تختص قدرته وعلمه ببعض المقدورات وبعض المعلومات دون البعض . وأما أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناه ، وكل ما كان متناهيا فى الذات كان متناهيا فى الصفات . وإذا كان الأمر كذلك امتنع أن تكون الشمس قادرة على إخراج الخبء وعالمة بالخفيات . وإذا لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار فهى ليست إلها . فرجع حاصل هذا الدليل إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام فى قوله (**ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا**)[٤] .

الوجه الثانى : أن هذا إشارة إلى دليل إبراهيم فى قوله : (**ربى الذى يحيي ويميت**)[٥] . إلى آخر الآية . وبيانه : أنه سبحانه وتعالى هو

---

(١) سورة النمل / ٢٥ .
(٢) خبء مصدر الفعل خبأ ، ويراد به المفعول . أى المخبوء المستور من الأرزاق .
(٣) وذلك أنه كما ذكر المؤلف ينزل المطر من صلب السماء إلى رحم الأرض .. إلى آخره .
(٤) سورة مريم / ٤٢ .
(٥) سورة البقرة / ٢٥٨ .

الذى يخرج الشمس من المشرق إلى المغرب بعد أفولها ، فهذا هو المراد بإخراج الخبء فى السموات والأرض[1] ، وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام : (**لا أحب الآفلين**)[2] . ومن قوله : (**فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب**)[3] . ومن قول موسى : (**رب المشرق والمغرب**)[4] .

وحاصل الكلام رجع إلى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر ، فكانت العبادة لقاهرها ومدبرها ؛ والمتصرف فيها أحق .

وأما إخراج الخبء من الأرض فالمراد منه : إخراج النطفة من بين الصلب والترائب ، وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام : (**ربى الذى يحي ويميت**)[5] ومن قول موسى عليه السلام : (**ربكم ورب آبائكم الأولين**)[6] .

فإن قيل : إن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلائل النفس على دلائل الأفلاك . فإن إبراهيم عليه السلام قال : (**ربى الذى يحي ويميت**) . ثم قال : (**فإن الله يأتى بالشمس من المشرق**) . وموسى عليه السلام قال : (**ربكم ورب آبائكم الأولين**). ثم قال : (**رب المشرق والمغرب**). ثم عكس سليمان هذا الترتيب ؛ فقدم دلائل السموات على دلائل النفس فقال : (**الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض**) .

فاعلم أن موسى وإبراهيم عليهما السلام كانت مناظرتهما مع من ادعى إلهية البشر . فإن نمروذ وفرعون كل واحد منهما كان يدعى الإلهية ، فلا جرم ابتدأ إبراهيم وموسى بإبطال الإلهية للبشر ؛ ثم انتقلا إلى إبطال الالهية

---

(١) انظر إرشاد العقل السليم ١ / ٢٤٠ لأبى السعود العمادى .
(٢) سورة الأنعام / ٧٦ .
(٣) سورة البقرة / ٢٥٨ .
(٤) سورة الشعراء / ٢٨ .
(٥) سورة البقرة / ٢٥٨ .
(٦) سورة الشعراء / ٢٦ .

للأفلاك . وأما سليمان عليه السلام فإنه كانت مناظرته مع من يدعى إلهية الشمس ، فان الهدهد قال : (**وجدتها وقومها يعبدون الشمس من دون الله**)(١) . فلا جرم ابتدأ بذكر السموات ، ثم ذكر الأرضيات .

ثم إن سليمان عليه السلام لما تمم دلائل التوحيد قال بعدها : (**لا إله إلا هو رب العرش العظيم**)(٢). والمراد : أنه لما بين افتقار السموات والأرض وسائر الأفلاك إلى مدبر خالق ؛ ذكر بعد ذلك أن كل ما كان جسما فهو مخلوق ومربوب ؛ سواء كان عظيما أو صغيرا ؛ فقال : (لا إله إلا هو رب العرش العظيم) ،فهذا مقام سليمان عليه السلام فى تقرير دلائل التوحيد .

وأما المقام الثانى الذى [هو] فى تقرير دلائل النبوة فهـو قوله تعالى حكاية عنه : (يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر)(٣) .

واعلم أن كثيرا من الناس قالوا : ذلك الشخص الذى قال : (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) هو غير سليمان ، وظنوا أن للكاف فى قوله : (آتيك) خطاب مع سليمان ، وعلى هذا التقدير لابد وأن يكون القائل غير سليمان . . إلا أن هذا ضعيف ، بل الصحيح عندنا : أن الآتى بذلك العرش هو سليمان . وذلك أنه عليه السلام قال : (أيكم يأتينى بعرشها) على سبيل التحدى . فقال العفريت : (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) . فقال سليمان عليه السلام للعفريت : (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) . فهذا الكلام قاله سليمان للعفريت تقريراً لتحديه الذى

---

(١) سورة النمل / ٢٤ .
(٢) سورة النمل / ٢٦ .
(٣) سورة النمل / ٣٨ — ٤٠ .

ذكره أولا ؛ وكسرا للعفريت ، وإظهاراً للمعجزة[١] .

والذى يدل عليه وجوه :

الأول : أن سليمان عليه السلام ذكر دلائل التوحيد أولا ، ثم افتقر بعد ذلك إلى تقرير دلائل النبوة ، ومع بلقيس فإن سليمان قد كلفها الإقرار بالتوحيد والنبوة[٢] ، فلما ذكر دلائل التوحيد وجب عليه أن يذكر بعد ذلك دلائل النبوة ؛ وهذا معجز دال على النبوة ، فوجب جعله معجزا لسليمان عليه السلام حتى يتم الدليل .

الثانى : أن لفظة الذى موضوعة فى اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفها بقصة معلومة : والشخص المعروف بأن عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام . قال الله تعالى : (**ففهمناها سليمان**)[٣]. وقال : (**وورث سليمان داود**)[٤] . فوجب انصرافه إليه . وأقصى ما فى الباب : أن آصف أيضا كان عالما بالكتاب ، إلا أن سليمان كان أعرف من آصف ، لأن الرسول أعرف بكلام الله من غيره ، فكان صرف اللفظ إلى سليمان أولى .

الثالث : أن إحضار العرش فى تلك الساعة اللطيفة درجة عالية ، فلو حصل لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان ؛ وإنه غير جائز ٥

---

(١) أجهد الشيخ محمد متولى الشعراوى نفسه فى تعليل إحضار آصف للعرش من دون سليمان ، وخلص إلى ذلك من الله ليثبت أنه قد يعطى الأدنى ما لم يعط الأعلى ، وهو خطأ رأينا ، يمكن أن يتسلل منه متطرفو الصوفية إلى القول بفضل الولى على النبى .

(٢) وذلك فى كتابه الذى أرسله إلى بلقيس (أنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلو على وأتونى مسلمين) . فقوله : (ألا تعلو على وائتونى) تكليف بالإقرار للنبوة وولاية الأمر الممنوحة له من الله وقوله : (مسلمين) تكليف بالتوحيد والإقرار بالله وحده وقد ذكر الخازن فى تفسيره فيما روى من أقوال : أنه معجز لسليمان نفسه دون آصف أو غيره.

(٣) سورة الأنبياء / ٧٩ . وتمام الآية دليل على علمهما (وكلا آتيناه حكما وعلما) .

(٤) سورة النمل / ١٦ . وهذه الآية أدل على علم سليمان فى تمامها (وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين) . وقوله (من كل شيء) دلالة على عموم عطائه فى باب المعجزة والعلم .

الرابع : أن سليمان لو افتقر فى هذا الغرض إلى آصف لاقتضى قصور سليمان فى أعين الخلق .

الخامس : أن سليمان قال : (**هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر**)[١] . وظاهره يقتضى أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان[٢] . . فهذا ما يتعلق باشتغال سليمان عليه السلام بتقرير التوحيد والنبوة ، والله أعلم .

واعلم عيسى عليه السلام أول ما تكلم شرح أمر التوحيد ، فقال : (**انى عبد الله**)[٣] . وشهادة حاله دالة على صدق مقالته ، وهذه الكلمة الواحدة كانت جامعة لكل المقاصد .

أما دلالتها على التوحيد فإن إنطاق الطفل فى زمان الطفولية لا يتأتى إلا من الإله القادر على كل المقدورات . وأما دلالتها على النبوة ففى دلالتها على براءة أمه من طعن اليهود : فإنه لا يليق بحكمة الحكيم تخصيص ولد الزنا بهذه الرتبة العالية والدرجة الشريفة . . ثم إنه عليه السلام بعد هذه الكلمة الوافية بتقرير كل الأغراض انتقل إلى بيان الشرائع فقال : (**آتانى الكتاب وجعلنى نبياً**)[٤]) .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فاعلم أن اشتغاله بتقرير دلائل التوحيد

---

(١) سورة النمل / ٤٠ .

(٢) ليس هذا عجيباً من رسول أعطى تسخير الكائنات آية له كسليمان عليه السلام ، وقد أوتى أسيد بن حضير من أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم استنزال الملائكة عند قراءته للقرآن ، ونزولهم لا يخضع للزمان ثكما هو معلوم . فالرسول المختص بتسخير الكائنات ومنها المسخرات الكونية كالرياح أولى وأجدر من عالم من علماء نبى إسرائيل ، لا سيما وهم قوم غلاظ القلوب لو ظهر فيهم مثل هذا لسفهوا سليمان وأذاعوا عجزه ضمن ما أذاعوه من مفتريات على الرسل ، فكيف وهذا أمر حقيق وليس مفترى كما يزعم المفسرون .

(٣) سورة مريم / ٣٠ .

(٤) سورة الجاثية / ٢٤ .

والنبوة والمعاد أظهر من أن يحتاج فيه إلى مزيد تقرير . وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان مبتلى بالرد على جميع فرق الكفار :

فالأول : الدهرية ، الذين كانوا يقولون : (**وما يهلكنا الا الدهر**)(١) والله تعالى أبطل قولهم ، فإنه خالق الدهر والزمان .

والثانى : الذين ينكرون القادر المختار (٢) والله تعالى أبطل قولهم بحدوث أنواع النبات ، وأصناف الحيوانات ، مع اشتراك الكل فى تأثير الطبائع والأفلاك .

والثالث : الذين أثبتوا شريكاً مع الله ، وذلك الشريك إما أن يكون علوياً أو سفلياً .

أما الشريك العلوى فنهم من أثبت أن ذلك الشريك هو الكواكب ، والشمس والقمر ، والله تعالى أبطلهم بدليل الخليل ، وهو قوله : (**لا أحب الآفلين**) (٣) . ومنهم من قال : هو النور والظلمة ، والله تعالى أبطله بقوله : (**الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور**) (٤) ومنهم من قال : يزدان وأهرمن (٥) ، والله تعالى أبطله بقوله : (**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**) (٦) . وبقوله (**إذن لاتبتغوا إلى ذى العرش سبيلا**)(٧) . وبقوله : (**ولعلا بعضهم على بعض**)(٨).

وأما الشريك السفلى فنهم من قال بإلهية المسيح ، والله تعالى أبطله

---

(١) سورة الأنعام / ٧٦ .
(٢) وهم الذين يقولون بالصدفة ، وينكرون التدبير والإحكام ، ومن ثم ينكرون الخالق ،
(٣) سورة الأنعام / ١ .
(٤) وهما إله الخير والشر عند الفرس .
(٥) سورة الأنبياء / ٢٢ .
(٦) سورة الإسراء / ٤٢ .
(٧) سورة المؤمنون / ٩١ .

بقوله : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله)[١] . ومنهم من قال : إنه الوثن ، والله تعالى أبطله بقوله : (أفمن يخلق كمن لا يخلق] [٢] .

والرابع : الذين طعنوا فى أصل النبوة ، وحكى الله تعالى عنهم قولهم : (أبعث الله بشراً رسولا) [٣] . ثم رد الله تعالى عليهم بقوله : (أهم يقسمون رحمه ربك) [٤] .

والخامس : الذين طعنوا فى التكليف ، تارة بأنه لا فائدة فيه والله تعالى رد عليهم بقوله : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها)[٥]. وتاره أخرى بأن الحق هو الجبر ، وهو ينافى صحة التكليف ، والله تعالى أجاب عنه بقوله : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) [٦] .

والسادس : الذين سلموا أصل النبوة ، وطعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن مملوء من الرد عليهم .

ثم إن طعنهم كان من وجوه : تارة بالطعن فى القرآن ، من حيث أنه مشتمل على ذكر خسائس الحيوانات ، من البعوضة والنملة والذبابة ، فأجاب الله عنه بقوله : (ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضه فما فوقها)[٧] . وتارة بأن القرآن سحر وشعر ، فأجاب الله عنه بقوله : (فأتوا بسورة من مثله) [٨] . وتارة بالتماس سائر المعجزات كقوله تعالى: (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) [٩] : فأجاب

---

(١) سورة النساء / ١٧٢ .
(٢) سورة النحل / ١٧ .
(٣) سورة الإسراء / ٩٤ .
(٤) سورة الإسراء / ٩٥ .
(٥) سورة الإسراء / ٧ .
(٦) سورة الأنبياء / ٢٣ .
(٧) سورة البقرة / ٢٦ .
(٨) سورة البقرة / ٢٣ .
(٩) سورة الإسراء / ٩٠ .

الله عنه بقوله . (هل كنت إلا بشراً رسولا)[١] وذلك أن الدليل لما تم لم يبق للإقتراح فى الزيادات فائدة ، وهو قوله تعالى . (سبحانك ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) وتارة بأن هذا القرآن نزل نجما نجما بطريق التهمة ، فأجاب الله بقوله .. (كذلك لنثبت به فؤادك) [٢] . وتارة بأنه يحتمل أن يكون هذا القرآن من إلقاء الجن والشياطين ، كما فى سورة الشعراء ، فأجاب الله عنه بقوله . (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم)[٣] .

والسابع . الذين أنكروا الحشر والنشر ، والقرآن مملوء من الرد عليهم

فثبت بما ذكرنا أن الاشتغال بدليل التوحيد والنبوة حرفة جميع الأنبياء عليهم السلام .

الحجة العاشرة على نهاية شرف هذا العلم قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) [٤] . وليس المراد منه المجادلة فى فروع الشرائع ، لأن من أنكر نبوته فلا فائدة من الخوض معه فى تفاريع الأحكام ، ومن أثبت نبوته فلا يخالفه . فعلمنا بهذا أن الجدال المأمور به فى تقرير دلائل الأصول . فإذا ثبت هذا فى حق الرسول ثبت فى حق أمته ، لقوله تعالى . (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)[٥]. ولقوله . (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)[٦] . وقوله عليه السلام . « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء من بعدى »[٧] .

---

(١) سورة الإسراء / ٩٣ .
(٢) سورة الفرقان / ٣٢ .
(٣) سورة الشعراء / ٢٢١ ، ٢٢٢ .
(٤) سورة النحل / ١٢٥ .
(٥) سورة الأنعام / ١٥٣ .
(٦) سورة آل عمران / ١٢٥ .
(٧) أخرجه أبو داود فى السنة عن عمران بن حصين .

الحجة الحادية عشرة : قوله تعالى . (**ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير**)[١] وذلك يقتضى أن الجدال مع العلم لايكون مذموماً . وأيضاً حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا . (**يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا**)[٢] . ومن المعلوم أن ذلك الجدال كان فى تقرير دلائل الأصول . وإذا ثبت بهذه الآيات أن الجدال فى تقرير الدلائل مستحسن ، ثبت أن المراد من قوله تعالى . (**ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون**)[٣] محمول على ذم الجدال فى تقرير الباطل .

الحجة الثانية عشرة . أنه تعالى أمر بالنظر ، فقال . (**أفلا يتدبرون القرآن**)[٤] (**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**)[٥] . (**سنريهم آياتنا الآفاق وفى أنفسهم**)[٦] . (**أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها**)[٧] . (**أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض**)[٨] .

الحجة الثالثة عشرة : أنه تعالى ذكر التفكر فى معرض المدح فقال : (**إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب**)[٩] . (**إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار**)[١٠] وأيضا ذم المعرضين فقال : (**وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون**)[١١] . (**لهم قلوب لايفقهون بها**)[١٢] .

---

(١) سورة الحج / ٨ .
(٢) سورة هود / ٣١ .
(٣) سورة الزخرف / ٥٨ .
(٤) سورة النساء / ٨٢ .
(٥) سورة الغاشية / ١٧ .
(٦) سورة فصلت / ٥٣ .
(٧) سورة الرعد / ٤١ .
(٨) سورة غافر / ١٨٥ .
(٩) سورة الزمر / ٢١ .
(١٠) سورة آل عمران / ١٣ .
(١١) سورة يوسف / ١٠٥ .
(١٢) سورة الأعراف / ١٧٩ .

الحجة الرابعة عشرة : أنه تعالى ذم التقليد فقال حكاية عن الكفار : **(إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)**[١] . وقال : **(بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)**[٢] . **(بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون)**[٣] . وقال : **(إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها)**[٤] . وقال فى والد إبراهيم عليه السلام : **(لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا)**[٥] . وكل ذلك يدل على وجوب النظر وفساد التقليد .

الحجة الخامسة عشرة : أنه تعالى حكى أنهم سألوا محمداً صلى الله عليه وسلم عن أمور ، كقوله : **(ويسألونك عن المحيض)**[٦] . **(ويسألونك عن الأنفال)**[٧] . فذكر فى هذه المواضع كذا وكذا ، إلا فى آية واحدة وهى أنهم سألوه عن مسألة أصولية ، وهى قوله : **(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً)**[٨] . الآية فههنا حرف التعقيب . يعنى : يا محمد ، اذكر هذا الجواب فى الحال ، لأن هذه المسألة أصولية ، ولا يجوز تأخير الجواب عنها ، لأن ذلك يقدح فى الإيمان : أما سائر المسائل فإنها فروعية ، فلا يكون تأخير الجواب عنها إلى وقت الحاجة ضارا .

فثبت بجميع هذه الدلائل وجوب تقديم الأصول على الفروع ، فلاجرم قال الله تعالى : **(فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)** . فقدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ، والله أعلم .



---

(١) سورة الزخرف / ٢٣ .
(٢) سورة البقرة / ١٧٠ .
(٣) سورة الشعراء / ٧٤ .
(٤) سورة الفرقان / ٤٢ .
(٥) سورة مريم / ٤٦ .
(٦) سورة البقرة / ٢٢٢ .
(٧) سورة الأنفال / ١

الفصل الثانى
فى فوائد كلمة لا إله إلا الله

الفائدة الأولى :

اعلم أن هذا الذكر لما كان من أفضل الأذكار فالعدو لما جاءته المحنة فزع إليه ، والولى لما جاءته المحنة فزع إليه .

أما العدو فإن فرعون لما قرب من الغرق قال : (**آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل**)[1] . والمعنى : أنه لا إله يقدر أن يجعل النار راحة كما فى حق إبراهيم ، ولا الماء عذابا كما فى حق فرعون[2] ، إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل .

وأما الولى فكما فى حق يونس . قال الله تعالى : (**فنادى فى الظلمات ألا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين**)[3] . والمعنى . . لا إله إلا أنت ، فإنك أنت الذى تقدر على حفظ الإنسان حياً فى بطن الحوت ، ولا قدرة لغيرك على هذا الحال[4] .

فان قيل : كل واحد منهما نادى ، فلماذا قبل نداء أحدهما ولم يقبل نداء الآخر ؟

---

(١) سورة يونس / ٩٠ .
(٢) فى الأصلين (فى حقه) . واخترنا ما على هامش ج من نسخة ثانية .
(٣) سورة الأنبياء / ٨٧ .
(٤) والنجاة من المكاره بهذا الدعاء محققة بنص القرآن ، فتمام الآية : (فاستجبنا له فنجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) .

قلنا : الفرق من وجوه :

الأول : أن يونس عليه السلام كان **قد سبقت له** المعرفة مع هذه الكلمة ، فسبق المعرفة إعانة على قبولها منه . **وأما فرعون** فقد تقدم له سبق الكفر ، وذلك لأن الذى تقدم له هو النداء إلى نفسه كما قال تعالى : (**فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى**)[1] . **وأما يونس** عليه السلام فقد كان ينادى الله . قال تعالى : (**ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم**)[2] . وأيضا قال : (**فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون**)[3] . وهذا ينبهك على أن من حفظ الله فى الخلوات ، يحفظه الله فى الفلوات .

الثانى : أن يونس عليه السلام إنما ذكر **هذه الكلمة** مع الحضور فقال : (**لا إله إلا أنت**) . فكان فى **الحضور والشهود** . وأما فرعون فانه قالها فى الغيبة ، فقال : (**لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل**) . فأحال العلم بحقيقة هذه الكلمة على الغير[4] .

الثالث : أن فرعون ذكر هذه الكلمة على **سبيل التقليد** لبنى إسرائيل ، فقال : (**آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل**) . وأما يونس عليه السلام فانه إنما ذكرها على سبيل **الاستدلال مع العجز** والانكسار بسبب تلك الكلمات[5] ، ثم قال بعده : (**سبحانك إنى كنت من الظالمين**) فحصل له العجز والانكسار بسبب الذلة ، **فلما كانت هذه** مسبوقة بالعجز والانكسار ملحوقة بهما لا جرم صارت **مقبولة : لقوله تعالى** : (**أمن يجيب المضطر إذا دعاه**)[6] .

---

(١) سورة النازعات / ٢٣ .

(٢) سورة القلم / ٤٨

(٣) سورة الصافات / ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٤) والضمير الذى استعمله كل منهما شاهد على حاله . **فيونس استعمل** ضمير الخطاب الدال على اليقين والمشاهدة ، وفرعون استعمل ضمير **الغائب الدال على غيبيته عن اليقين والمشاهدة .**

(٥) وهى قوله : (لا إله إلا أنت) . وهنا عجز **وانكسار** أمام القدرة القاهرة . أما العجز والانكسار الثانى فأمام شعوره بالتقصير .

(٦) سورة النمل / ٦٢ .

الرابع : أن فرعون إنما ذكر هذه الكلمة لاللعبودية ، بل لطلب الخلاص من الغرق ، بدليل قوله : (**فلما أدركه الغرق قال آمنت**)(١) . وأما يونس عليه السلام فهو إنما قالها لما حصل له من الانكسار بسبب التقصير فى الطاعة والعبودية ، بدليل قوله بعده : (**سبحانك إنى كنت من الظالمين**) :

* * *

الفضيلة الثانية لهذه الكلمة :

أنه تعالى أمرك بطاعات كثيرة ، من الصلاة والصيام والحج ، ويستحيل أن يوافقك [الله] فى شىء منها ، ثم أمرك أن تقول : لا إله إلا الله ، ثم إن الله يوافقك فيها ، فقال : (**شهد الله أنه ألا له إلا هو والملائكه وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم**)(٢) .

والمقصود من التكرير(٣) وجهان : أن يكون العبد مواظبا على تكريرها طول عمره ، الثانى : كأنه قال : عبدى ، جعلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها ، فاجعلها أنت أيضا أول عمرك وآخره ، حتى تفوز بالنجاة والسلامة .

وههنا نكت :

الأولى : أنه تعالى جعلك ثالث نفسه(٤) فى هذه الآية : وكفاك هذا فخرا .

---

(١) سورة يونس / ٩٠

(٢) سورة آل عمران / ١٨ .

(٣) يعنى تكرير (لا إله إلا هو) فى نفس الآية .

(٤) والثلاثة هم : الله سبحانه وتعالى ، والملائكة ، وأولو العلم ، وليس كل عالم بالله مؤمنا ، فالعلم لابد أن تقترن به شهادة لله عن أمر رسول حتى يكون العالم بالله مؤمنا . وقد كان هناك علماء بالله ولكنهم ليسوا بمؤمنين ، ومنهم زيد بن عمر و بن نفيل ، وقس بن مساعدة ، وهم سعداء ناجون إن شاء الله . انظر (أسرار أركان الإسلام للإمام الشعرانى ص ٢٧ وما بعدها) .

الثانية : روى أن يوسف عليه السلام أراد أن يتخذ وزيرا ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تتخذ فلانا وزيرا لك . فنظر إليه يوسف عليه السلام ، وكان [الرجل] فى غاية الدناءة ، فسأل جبريل عن السبب ، فقال : إن له عليك حق الشهادة ، إنه هو الذى شهد (**وإن كان قميصه قد من قبل**)[1] الآية . والإشارة : أن من شهد لمخلوق وجد وزارته فى الدنيا ، فمن شهد لله بالتوحيد والجلال كيف لا يجد معرفته ورحمته فى العقبى ؟

الثالثة : فى الحديث : « إن لله ملائكة يؤمنون عند تأمين الإمام ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه[2] » . والإشارة : أن من وافق تأمينه تأمين الملائكة مرة صار مغفورا له ، فمن وافقت شهادته بوحدانية الله شهادة الله ألف مرة أولى أن يصير مغفورا له .

الرابعة : أنه سبحانه سماك وقت التخليق مختارا ، فقال (**وربك يخلق ما يشاء ويختار**)[3] . أى مختارا له ، لا أنه أثبت الخيار للعبد ، وفى موضع الذنب [سماه] جاهلا فقال : (**إنه كان ظلوماً جهولا**)[4] . وفى موضع الرزق [سماه] دابة [فقال] : (**وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها**)[5] . وفى وقت الطاعة [سماه] أجيرا : (**فيوفيهم أجورهم**[6]) . وعند الشهادة عالما (**والملائكة وأولوا العلم**) . ثم إن العلم أفضل الدرجات : (**وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما**)[7] .

والغرض منه : التنبيه على الدرجات . فأنت من حيث أنى خلقتك

---

(١) سورة يوسف / ٢٧

(٢) أخرجه أصحاب السنن عن أبى هريرة .

(٣) سورة القصص / ٦٨ .

(٤) سورة الأحزاب / ٧٢ .

(٥) سورة هود / ٦ .

(٦) سور النساء / ١٧٣ .

(٧) سورة النساء / ١١٣ .

مختارى ، فلك درجة موسى حيث قلت : ((وأنا اخترتك))[1] . وحين أذنبت فأنت جاهل ، والجهل عذر من بعض الوجوه ، وحين تشتغل بطلب الرزق كالبهيمة ، لأنه هو الذى تكفل برزقك ، فما هو مقدور لك يصل إليك ، وما ليس مقدورا لك لا يصل إليك ، فكأن الطلب عديم الفائدة[2] فكان [هذا] شبيه أفعال البهائم ، وحين تشتغل بالعمل كنت كالأجير . وتلك كلها درجات نازلة ، أما حين تشتغل بالشهادة والتوحيد فأنت من العلماء الخائضين فى لجة بحر التوحيد ، وبلغت الغاية القصوى فى المنقبة والشرف ، كما قال تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)[3] .

الخامسة : قال الله تعالى : (وما تلك بيمينك يا موسى)[4] وقعت هذه الإشارة على العصا وعلى اليد ، أما العصا فقوله : (تلك). وأما اليد فقوله : (بيمينك) . فصارت العصا من قوة هذه الكلمة تلقف حبال السحرة وعصيهم ، وصارت اليد يداً بيضاء (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء)[5] . وكلمة لا إله إلا الله ، وهى صفة وحدانيته وفردانيته فى ذاته وجلاله وعزته ، ألا تستقل بإفناء آثار العصيان عن قلب العبد وإنارة روحه بنور المعرفة والهداية ؟

السادسة : عصا موسى أخرجت من الجنة ، فبطل السحر عندها ، فهذه الكلمة إنما ظهرت من شجرة العِزَّة والربوبية والعظمة ، ونرجو أن تبطل الذنوب عندها .

السابعة : حكى عن الحجاج أنه أمر بضرب عنق رجل ، فقال لا تقتلنى حتى تأخذ بيدى وتمشى معى . فأجابه إليه ، فقال الرجل : بحرمة صحبتى معك فى

---

(١) سورة طه / ١٣ .
(٢) المراد شغل القلب بالطلب لا مجرد الحركة فى طلب الرزق مع شغل القلب بخالق الأسباب . وقد ثار خلاف بين السلف على الحركة فى طلب الرزق . انظره فى (المكاسب للمحاسبى) ملحق بأعمال القلوب والجوارح . من تحقيقنا .
(٣) سورة المجادلة / ١١ .
(٤) سورة طه / ١٧ .
(٥) سورة النمل / ١٢ .

هذه الساعة لا تقتلني . فعفا عنه ، فههنا وقعت للمؤمن صحبة مع الله الكريم في هذه الشهادة ، فنرجو أن يغفر الله له .

الثامنة : وجد المؤمن بهذه الشهادة أبوة إبراهيم؛ وهو قوله : **(ملة أبيكم ابراهيم)** [١] . وأمومة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم **(وأزواجه أمهاتهم)**[٢]. وأخوة المؤمنين **(انما المؤمنون اخوة)**[٣] . واستغفار الأنبياء **(واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)**[٤] . واستغفار الملائكة **(ويستغفرون للذين آمنوا)**[٥] . وشفيعاً مثل محمد صلى الله عليه وسلم « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »[٦] ومشاركة الله تعالى في الاسم « المؤمن » فذنبه ما أزال عنه هذه التشريفات ، أفترى أنه يخرجه عن رحمة أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين؟

التاسعة : يحكى أنه عرض على نصر بن أحمد عسكره ، وكان يسأل عن أسماء الرجال فيجيبون ، فسأل واحداً عن اسمه فسكت ، لأنه كان سميه ، ففطن لذلك ، فأعطاه خلعة ، فإذا كان حال سمي الملك ذلك ، فكيف من كان سمي ربه تعالى « المؤمن » .

* * *

الفضيلة الثالثة لهذه الكلمة :

أن كل طاعة فإنه يصعد بها الملك ، أما قول لا إله إلا الله فإنه يصعد بنفسه ، ودليله قوله تعالى : **(اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)** [٧] . أي : عمل الصالح ترفعه الملائكة . هكذا قال بعضهم [٨] .

* * *

---

(١) سورة الحج / ٧٨ .
(٢) سورة الأحزاب / ٦ .
(٣) سورة الحجرات / ١٠ .
(٤) سورة محمد / ١٩ .
(٥) سورة غافر / ٧ .
(٦) أخرجه ابن ماجة عن عبد الله بن عمرو بن العاص .
(٧) سورة فاطر / ١٠ .
(٨) انظر الدر المنثور ٣ / ٩٥ .

الفضيلة الرابعة : قال بعضهم : الحكمة فى قوله تعالى : (**إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت**)[١]. أن يوم القيامة يتجلى نور كلمة لا إله إلا الله ، فينمحق فى ذلك النور نور الشمس والقمر[٢] ، لأن تلك الأنوار مجازية ، ونور لا إله إلا الله نور ذاتى واجب الوجود لذاته ، والمجاز يبطل فى مقابلة الحقيقة . فلا جرم يبطل كل نور فى مقابلة هذا النور ، بل يبطل كل وجود فى مقابلة هذا الوجود ؛ كما قال : (**كل شىء هالك إلا وجهه**)[٣].

* * *

الفضيلة الخامسة :

أن جميع الطاعات تزول يوم القيامة مثل الصلاة والصيام والحج ، فإن التكاليف الظاهرة تزول فى عالم الغيب : أما طاعة التهليل والتحميد فلا تزول عنهم ، وكيف يمكن زوالها عنهم والقرآن يدل على أنهم مواظبون على الحمد ، والمواظبة على الحمد تدل على المواظبة على الذكر والتوحيد . وإنما قلنا : إنهم مواظبون على الحمد لقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : (**وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده**)[٤](**دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**)[٥]. (**لا اله الا هو له الحمد فى الأولى والآخرة**)[٦] . فثبت أنهم مواظبون على الحمد ، مواظبة على الذكر ، فعلمنا أن جميع العبادات زائلة عن أهل الجنة إلا طاعة الذكر والتوحيد .

* * *

الفضيلة السادسة :

ما روى فى الآثار أنه قال « إذا قال العبد : لا إله إلا الله ، فإنه تعالى

---

(١) سورة التكوير / ٢٢ .
(٢) ودليل بطلان كل شىء إلا الله يوم القيامة قوله تعالى : (لمن الملك اليوم) ؟ فلما لم يجب أحد أجاب سبحانه (لله الواحد القهار) .
(٣) سورة القصص / ٨٨ .
(٤) سورة الزمر / ٧٤ .
(٥) سورة يونس / ١٠ .
(٦) سورة القصص / ٧٠ .

يعطيه من الثواب بعدد كل كافر وكافرة على وجه الأرض [1] . قال المحققون : السبب فى ذلك أنه لما قال هذه الكلمة ، فإنه قد رد على كل كافر وكافرة يثبت لله ضداً أو نداً أو شريكاً ، فلا جرم يستحق الثواب بعددهم .

الفضيلة السابعة :

قال السدى فى قوله تعالى : (حمعسق) الحاء حلمه وحكمه وحجته ، والميم ملكه ومجده ، والعين عظمته وعلمه وعزه وعدله ، والسين سناه وسره والقاف قدرته وقهره . يقول : بحلمى وبحكمى وملكى ، وبمجدى وعظمتى ، وعزى وعلمى وعدلى ، وسنائى وسرى ، وقدرتى وقهرى ، لا أعذب فى النار أبدا من قال : لا إله إلا الله [2] .

الفضيلة الثامنة :

قيل : إذا كان آخر الزمان فليس لشىء من الطاعات فضل كفضل لا إله إلا الله ، لأن صلاتهم وصومهم يشوبها الرياء والسمعة ، وصدقاتهم يشوبها الحرام والشبهة ، فلا خلاص فى شىء منها ، أما كلمة لا إله إلا الله فهى ذكر الله ، والمؤمن لا يذكر الله إلا من صميم القلب .

* * *

الفضيلة التاسعة :

الأحاديث الواردة فى فضل هذه الكلمة :

فالأول : قوله عليه السلام : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله [3] » .

والثانى : عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه عليه السلام قال : « ليس

---

(١) لم نعثر على هذا الأثر فيما لدينا من مصادر .

(٢) انظر حقائق التفسير للسلمى ورقة ٢٤٥ أ .

(٣) أخرجه البيهقى وأحمد وأبو يعلى عن أبى هريرة .

على أهل لا إله إلا الله وحشة فى الموت ، ولا وحشة عند النشر : وكأنى أنظر إلى أهل لا إله إلا الله ينفضون شعورهم من التراب ويقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن[١] » .

الثالث : يروى أن المأمون لما انصرف من مرو يريد العراق ، واجتاز نيسابور ، وكان على مقدمتة على بن موسى الرضا ، فقام إليه قوم من المشايخ ، وقالوا : نسألك بحق قرابتك من وسول الله صلى الله عليه وسلم أن تحدثنا حديثا ينفعنا . فروى عن أبيه عن آبائه عن النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى أنه قال : « لا إله إلا الله حصنى ، فمن دخل حصنى أمن من عذابى[٢] » .

الرابع : روى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يفتح الله أبواب الجنة ؛ وينادى مناد من تحت العرش : أيتها الجنة ، وكل ما فيك من النعم ، لمن أنت ؟ فتنادى الجنة ومن فيها : نحن لأهل لا إله إلا الله ، ونشتاق لأهل لا إله إلا الله ؛ ونحن محرمون على من لم يقل لا إله إلا الله ، ومن لم يؤمن بلا إله إلا الله[٣] »

الخامس : قال عليه السلام : « أمرت أن أقاتل النـاس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله[٤] » . قال بعض العلماء : إنه تعالى جعل العذاب عذابين : أحدهما السيف من يد المسلمين ، والثانى عذاب الآخرة فالسيف فى غلاف يرى ، والنار فى غلاف لا يرى : فقال لرسوله : من أخرج لسانه من غلاف المرىء وهو الفم فقال : لا إله إلا الله ، أدخلنا السيف فى الغمد الذى يرى : ومن أخرج لسان القلب من الغلاف الذى لا يرى وهو السر ، فقال : لا إله إلا الله ، أدخلنا سيف عذاب

---

(١) أخرجه الحكيم فى نوادر الأصول ص ٢٠٤ .
(٢) أخرجه الحكيم فى النوادر ص ٢٠٦ .
(٣) لم نعثر على هذا الحديث فى مصادرنا .
(٤) حديث متفق عليه . وقوله « وحسابهم على الله يعنى من حيث السرائر » .

الآخرة فى غمد الرحمة ؛ حتى يكون واحد بواحد ، ولا ظلم ولا جور .

السادس : عن أنس قال : قال عليه السلام : « من قـــرأ عند منامه (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام) خلق الله تعالى سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامه ، وأنا على ذلكم من الشاهدين[1] .

السابع : عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال عليه السلام : « إن فاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، وشهد الله — إلى قوله — إن الدين عند الله الإسلام : وقل اللهم مالك الملك — إلى قوله — بغير حساب ، معلقات ما بينهن وبين الله حجاب ، يقول الله عز وجل : بى حلفت ، لا يقرأكن أحد من عبادى إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منة : وأسكنته حظيرة القدس ، ولأنظرن إليه بعين الرحمة كل يوم سبعين ألف مرة ، ولقضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، وأحفظه من كل عدو وحاسد[2] » .

الثامن : قال أبو سعيد الخدرى : قال عليه السلام : ما من عبد يقول أربع مرات : اللهم إنى أشهدك وكفى بك شهيدا ، وأشهد حملة عرشك وملائكتك ، وجميع خلقك ، أنى أشهد ألا إله إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأشهد أن محمدا عبدك ورسولك ، إلا كتب الله له صكا بالعتق من النار[3] » .

التاسع : عن ابن عمر قال : قال صلى الله عليه وسلم : « يجاء برجل من أمتى يوم القيامة على رءوس الخلائق ، فينشر عليه تسعة وتسعين

---

(١) أخرجه الدارمى ومسدد عن أنس كما فى كنز العمال ١ / ٢٢٢ .
(٢) ذكره ابن الجوزى فى الواهيات من الأحاديث انظر العلل المتناهية ص ١٧٥ .
(٣) أخرجه الدارمى والترمذى عن أبى سعيد .

سجلا ، كل سجل مثل مد البصر ، فيقال له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقال : ألك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول الله تعالى : إن لك عندنا وديعة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم . فيخرج له بطاقة فيها : أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : يارب ، هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله : لا ظلم اليوم ، فتوضع البطاقة فى كفة فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله شىء[1] » .

العاشر : عن أنس قال : قال عليه السلام : « ما زلت أشفع إلى ربى فيشفعنى ، حتى أقول : يارب شفعنى فيمن قال : لا إله إلا الله . فيقول الله تعالى : هذه ليست لك يامحمد ، إنما هذه لى . وعزتى ورحمتى وحلمى ، لا أدع فى النار أحداً قال : لا إله إلا الله[2] .

* * *

واعلم أن أهل العرفان ذكروا فى تفسير لا إله إلا الله وجوها :

الأول : قال ابن عباس ، لا إله إلا الله : لا نافع ولا ضار ولا معز ولا مذل ولا معطى ولا مانع إلا الله .

الثانى : لا إله يرجى فضله ، ويخاف عدله ، ويؤمن جوده ، ويؤكل رزقه ، ويسأل عفوه ؛ ويترك أمره ، ويرتكب نهيه ، ولا يحرم فضله إلا الله الذى هو رب العالمين ، وغفار المذنبين ، وملجأ التائبين المغمومين ، وغاية رجاء الراجين ، ومنتهى مقصد العارفين .

الثالث : : قول العبد : لا إله إلا الله ، إشارة إلى المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتسديد ، إلى الملك المجيد ، فاذا قال : لا إله إلا الله ، فالمعنى لا إله له الآلاء والنعماء ، والقدرة والبقاء ، والعظمة والسناء : والعزة

---

(١) أخرجه أبو داوود والترمذى والبيهقى .

(٢) ذكره السيوطى فى البدور السافرة وعزاه إلى ابن المنذر وابن الفرس .

والثناء ، والسخط والرضا ، إلا الله الذى هو رب العالمين وخالق الأولين والآخرين ، وديان يوم الدين .

الرابع : لا إله للرغبة ، ولا إله للرهبة ، إلا الله الذى هو كاشف الكربة .

وعن عمران بن حصين قال : قال عليه السلام لأبى حصين : « كم تعبد اليوم من إله » ؟ قال : أعبد ستة أو سبعة فى الأرض ، وواحدا فى السماء . قال : « أيهم تعبده برغبتك ورهبتك » ؟ قال : الذى فى السماء . قال : « فيكفيك إله السماء » . ثم قال : « ياحصين ، لو أسلمت علمتك كلمتين ينفعانك » فأسلم حصين ، ثم قال : يارسول الله ، علمنى هاتين الكلمتين . فقال : « قل : اللهم ألهمنى رشدى ، واغفر لى ، واعصمنى من شر نفسى [1] » .

الخامس : قيل فى قوله : (**شهد الله**) . يشهد الله تعالى فى عوالم القدس ، وحظائر الجلال ، وسرادقات الصمدية ، والملائكة يشهدون بهذه الشهادة فى السماوات ، وأولو العلم يشهدون بهذه الشهادة فى الأرضين .

وقال جعفر الصادق وقد سألوه عن هذه الآية : إن الله شهد لنفسه بالفردانية والصمدية والأحدية والأزلية ، ثم خلق الخلق ، فشغلهم بعبادة هذه الكلمة[2] ، وذلك لأن شهادة الحق لنفسه حق ، وشهادتهم له رسم ، فكيف يستوى الرسم مع الحق ، ومن أين للتراب طاقة على تجلى نور رب الأرباب .

وقال سعيد بن جبير : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فلما نزل قوله تعالى : (شهد الله) خرت الأصنام سجدا حول الكعبة[3] .

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه والطبرانى وأبويعلى .
(٢) يعنى : تعبدهم بها حتى أصبحت شرطا فى الإسلام ، وذكرا يرفع الدرجات .
(٣) انظر الدر المنثور ١ / ١٣٥ .

الفصل الثالث
فى أسماء كلمة التوحيد

الأول : كلمة التوحيد :

وذلك لأنها تدل على نفى الشرك على الإطلاق . وفائدة قولنا : على الإطلاق ، أنه تعالى لما قال : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾[1] . أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول : إن إلهنا واحد ، فلعل إله غيرنا مغاير لإلهنا . فالله تعالى أزال هذا التوهم ببيان التوحيد المطلق ، فقال : ﴿ لا إله إلا هو ﴾[1].و ذلك لأن قولنا : لا رجل فى الدار ، يقتضى نفى الماهية ، ومتى انتفت الماهية ، انتفى جميع أفرادها ، إذ لو حصل فرد من أفراد تلك الماهية لحصلت تلك الماهية ، لأن كل فرد من أفراد الماهية يشتمل على الماهية ، وإذا وجدت الماهية فذلك يناقض نفى الماهية ، فثبت أن قولنا : لا رجل فى الدار ، يفيد النفى العام الشامل فاذا قيل بعد ذلك : إلا زيدا ، أفاد التوحيد العام الكامل .

ثم اعلم أن لهذا ثمرتين :

الأولى : أن جوهر الإنسان خلق فى الأصل مشرفا مكرما ، قال تعالى: ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾[2] . فاذا كان الأصل فيه كونه مكرما ؛ كان كونه مطهرا على وفق الأصل ، وكونه منجسا على خلاف الأصل[3] ، ثم إنا رأينا الإنسان متى أشرك صار نجسا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إنما المشركون

---

(١) سورة البقرة / ١٦٣ .

(٢) سورة الإسراء / ٧٠ .

(٣) ويدل على ذلك قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . والحديث الصحيح : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

نجس) (١) . فاذا كان الشرك يقتضي كونه نجسا مع ذلك على خلاف الأصل، فكونه موحدا بأن يقتضي كونه طاهراً أولى ؛ لأنه على وفق الأصل . وإذا ثبت أن الموحد كامل فى كونه طاهراً وجب أن يكون من خواص الله تعالى، لقوله : (الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات)(٢) .

الثانية : أن الشرك سبب لخراب العالم ، بدليل قوله تعالى : (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولدا) (٣) . وإذا كان الشرك سبباً لخراب العالم، وجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة العالم ضرورة كون الضدين مختلفين فى الحكم ، فاذا ثبت أن كلمة التوحيد سبب لعمارة العالم ، فأولى أن تكون سبباً لعمارة القلب الذى هو محل الوحدانية ولعمارة اللسان الذى هو محل ذكر الوحدانية ، وذلك يناسب عفو الله عن أهل التوحيد .

* * *

الاسم الثانى :

أن هذه الكلمة تسمى « كلمة الإخلاص » . وكان معروف الكرخى(٤) يقول : « يا نفسى : تخلصى » . ثم التحقيق فيه : أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فاذا صفا عن شوبه ، وخلص لله ، سمى خالصا ، وسمى الفعل إخلاصا .

ولا شك أن كل من أتى بفعل اختيارى فلا بدله فى ذلك الفعل من غرض ، فمتى كان الغرض فى الفعل واحدا ، سمى هذا الفعل إخلاصا . فمن تصدق وكان غرضه محض الرياء فهو غير مخلص ، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله فهو مخلص ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص

---

(١) سورة التوبة / ٢٨ .
(٢) سورة النور / ٢٦ .
(٣) سورة مريم / ٨٩ ، ٩٠ .
(٤) معروف الكرخى عابد زاهد عالم مجاب الدعوة مات عام ٢٩٥ .

بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أن الإلحاد هو الميل ، و لكن خصصه العرف بالميل عن الحق .

فاذا عرفت هذا فنقول : الباعث على الفعل إما أن يكون روحانياً فقط ، ، وهو الإخلاص ، أو شيطانياً فقط ، وهو الرياء ، أو مركباً منهما ، وهو على ثلاثة أقسام ، لأن الطرفين إما أن يكونا على السوية ، أو يكون الروحانى أقوى ، أو يكون النفسانى أقوى .

القسم الأول : وهو أن يكون الباعث روحانياً فقط ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله ، مستغرق الهمه به : بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه مقر ، حتى لا يحب الأكل والشرب ، بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة ، من حيث أنه ضرورة الجبلة . فلذلك لا يشتهى الطعام لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على عبادة الله . فمثل هذا الشخص إذا أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل فى جميع حركاته وسكناته ، ولو نام مثلا لتستريح نفسه لتقوى على عبادة الله كان نومه أيضا عبادة .

أما القسم الثانى : وهو أن يكون الباعث نفسانياً ، فهو لا يتصور إلا من محب للنفس والدنيا ، مستغرق الهم بهما ، بحيث لم يبق لحب الله فى قلبه مقر . وكما أنه فى القسم الأول لما غلب حب الله وحب الآخرة على قلبه اكتسب بحركاته الاختيارية هذه الصفة[1] ، فكذلك من غلب على قلبه حب النفس والدنيا ، اكتسبت جميع أفعاله تلك الصفة[2] ، فلا يسلم له شىء من عبادته ، وهذان القسمان لا يخفى حكمهما فى الثواب والعقاب .

وأما الأقسام الثلاثة الباقية فنقول :

أما الذى فيه الباعثان [متساويان] فالأظهر أنهما يتعارضان ويتناقضان ، فيصير ذلك العمل لا له ولا عليه وأما الذى يكون أحد الطرفين فيه أغلب ؛

---

(١) يعنى صفة الإخلاص .

(٢) يعنى صفة الرياء والسمعة وحب المحمدة .

فيحط منه ما يساوى الطرف الآخر ، وتبقى الزيادة موجبة أثرها اللائق بها . وذلك هو المراد بقوله تعالى : (**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يرة . ومن يعمل مثقال ذرةشراً يره**)[١] . وقوله : (**إن الله لا يظلم مثقال ذرة**)[٢].

وتمام التحقيق فيه : أن الأعمال لها تأثيرات فى القلب ، فاذا خلا المؤثر عن المعارض خلا الأثر عن المضعف ، وإذا كان المؤثر مقرونا بالمعارض ؛ فان تساويا تساقطا ، وإن كان أحدهما أغلب فلابد وأن يحصل فى الزائد بمقدار الناقص ، فيحصل التساوى بينهما ، أو يحصل التساقط ويبقى القدر الزائد خالياً عن المعارض ، فيؤثر لا محالة أثرما . وكما لا يخلو مثقال ذرة من الطعام أو الشراب عن أثر فى الجسد ، فكذلك لا يخلومثقال ذرة من الخير والشر عن أثر فى التقريب من باب الله تعالى أو التبعيد منه . فاذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يباعده شبرا فقد عاد إلى ما كان عليه ، لا له ولا عليه . وإذا كان أحد الفعلين مما يقربه شبرين والفعل الثانى مما يباعده شبرا واحدا اقترب لا محالة شبرا إلى الله[٣] .

واحتج من زعم أن المشوب لا ثواب عليه بوجهين :

الحجة الأولى : ما روى أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عمن يصنع المعروف ثم يحب أن يحمد عليه ويؤجر ، فلم يدر ما يقول حتى نزل : (**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**)[٤]

الحجة الثانية : ما روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه السلام قال

---

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨

(٢) النساء : ٤٠ .

(٣) يرى الحارث بن أسد المحاسبى : أن التجرد للتخلص من شوائب الأعمال وأدواء النفوس أفضل من عمل النوافل مع بقاء النفس على ما هى عليه من أمراض ، واحتج بأن الإنسان مكلف بترك الشر كله ، وليس مكلفاً بفعل الخير كله ، وبأن الشر إذا مازج الخير صار شراً كله ، ولكنه لم يتعرض لمسألة الثواب ، وظاهر كلامه عن تحول الخير المشوب بالشر إلى شر يقضى بعدم الثواب عليه . انظر (آداب النفوس . باب التطهير والعمل) .

(٤) الكهف ١١٠ .

لمن أشرك فى عمله أحدا : « خذ أجرك ممن عملت له[1] » . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله يقول : أنا أغنى الأغنياء عن الشرك : من عمل عملا أشرك فيه غيرى ، تركت نصيبى لشريكى[2] .

والجواب عن الحجة الأولى : أنها محمولة على ما إذا أتى بالعمل لغرض الدنيا فقط . والجواب عن الثانية : أن لفظ الشرك محمول على تساوى الداعين ، وقد بينا أنه عند التساوى فيحيط كل واحد منهما الآخر .

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : كلمة لا إله إلا الله ، مسماة بكلمة الإخلاص ، وذلك أن الأصل فى هذه الكلمة عمل القلب ، وهو كون الإنسان عارفا بقلبه وحدانية الله تعالى ، وهذه المعرفة الحاصلة بالقلب مستحيل أن يأتى بها لغرض آخر سوى طاعة الله وحبه وعبوديته ، فهذه المعرفة إن طلبت ظلت لوجه الله تعالى ، لا لغرض آخر ألبتة ، بخلاف سائر الطاعات البدنية ، فإنها كما يؤتى بها لتعظيم الله ، قد يؤتى بها لسائر الأغراض العاجلة من الدنيا ، وطلب المدح والثناء ، فلهذا السبب سميت هذه الكلمة الإخلاص .

* * *

الاسم الثانى لهذه الكلمة « كلمة الإحسان » :

ويدل على صحة هذه التسمية القرآن والخبر والمعقول ، أما القرآن فآيات :

إحداها قوله تعالى : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)[3] . قال المفسرون : المراد من قوله (هل جزاء الإحسان) : هل جزاء الإيمان[4] . والتحقيق فيه : أن عليك عهد العبودية ، وعلى كرمه عهد الربوبية ، كما قال

---

(١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٧٨ .
(٢) الترمذى وأحمد والطبرانى وأبو داوود .
(٣) سورة الرحمن / ٦٠ .
(٤) انظر تفسير القرطبى ١٧ / ٧٣ .

تعالى : (**أوفوا بعهدى أوف بعهدكم**)[١] . وعهد عبوديتك : أن تكون عبداً له لا لغيره ، ثم كمال هذه الدرجة : أن تعرف أن كل ما سوى الله فهو عبد له ، كما قال : (**إن كل من في السموات والأرض إلاَّ آتي الرحمن عبدا**) [٢] ومن أتى بالفعل على أحسن الوجوه كان محسناً فيه ، وقوله : لا إله إلا الله ، يدل على اعتراف بأن كل ما سواه فهو عبده ومربوبه . فثبت أن قول لا إله إلا الله ، إحسان من العبد ، فقوله : (**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**) أى : هل جزاء من أتى بقول لا إله إلا الله إلا أن أجعله فى حماية لا إله إلا الله .

والثانية قوله تعالى : (**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**)[٣] والمراد من قوله : (للذين أحسنوا) هو قول لا إله إلا الله باتفاق أهل التفسير[٤]. وبدليل أنه لو قال ذلك ومات ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة .

وثالثها قوله : (**ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً**) [٥] . واتفقوا على أن هذه الآية نزلت فى فضيلة الأذان [٦] ، وما ذاك إلا لاشتمال الأذان على كلمة لا إله إلا الله . وأيضاً فإنه تعالى قال فى صفة الكافرين : (**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا**) [٧] . فكما أنه لا قبيح أقبح من كلمة الكفر ، لا حسن أحسن من كلمة التوحيد ، ولهذا قال تعالى فى أول سورة المؤمنين ؛ (**قد أفلح المؤمنون**)[٨] . وقال فى آخر السورة : (**إنه لا يفلح الكافرون**)[٩] .

---

(١) البقرة : ٤٠

(٢) مريم : ٩٣ .

(٣) يونس : ٦

(٤) انظر تفسير القرطبى ١٥/ ١١٦ .

(٥) فصلت : ٣٣ .

(٦) ذكره فى كنز العمال ٤/ ٢٦٦ وعزاه إلى أبى الشيخ فى كتاب الأذان عن عائشة . وفيه : « إذا قال المؤذن حى على الصلاة فقد دعا إلى الله ، وإذا صلى فقد عمل صالحاً ، وإذا قال : لا إله إلا الله فهو من المسلمين » . وعليه تكون الآية فى فضيلة المؤذن لا الأذان كما ذكر المؤلف .

(٧) العنكبوت : ٦٨

(٨) المؤمنون : ١

(٩) المؤمنون : ١١٧ .

ثم إنه لما كان قول الموحد حسناً كان مقيله حسناً كما قال تعالى : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا)[١] ولما كان قول الكافر قبيحاً كان مقيله أيضاً مظلماً . قال تعالى : (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات)[٢] .

ورابعها قوله تعالى : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)[٣]. ولا شك أن أحسن القول لا إله إلا الله .

وخامسها قوله تعالى ، (إن الله يامر بالعدل والاحسان)[٤] قيل : العدل : الإعراض عما سوى الله تعالى ، والإحسان : الإقبال على الله تعالى .

وسادسها قوله تعالى : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم)[٥] . ولا شك أن الإحسان قول لا إله إلا الله .

وأما الخبر فما روى أبو موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » : للذين قالوا : لاإله الا الله الحسنى وهى الجنة ، والزيادة هى النظر إلى وجهه الكريم »[٦] » .

وأما المعقول فهو أنه كلما كان الفعل حسناً كان فاعله أكثر إحساناً ، ولا شك أن أحسن الأذكار ذكر لا إله إلا الله ، وأحسن المعارف معرفة لا إله إلا الله ؛ وإذا كان كذلك كانت هذه المعرفة وهذا الذكر إحساناً .

* * *

---

(١) سورة الفرقان / ٢٤ .
(٢) سورة البقرة / ٢٥٧ .
(٣) سورة الزمر / ١٨ .
(٤) سورة النحل / ٩٠ .
(٥) سورة الإسراء / ٧ .
(٦) الدر المنثور ٣ / ١٧ .

الإسم الرابع «دعوة الحق» :

قال الله تعالى فى سورة الرعد : (له دعوة الحق) [١] . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله [٢] . واعلم أن قوله تعالى : (له دعوة الحق) يفيد الحصر ، ومعناه : له هذه الدعوة لا لغيره ، كما أن قوله تعالى : (لكم دينكم ولى دين) [٣] . معناه : لكم دينكم لا لغيركم ، ولى دينى ، وتحقيق الكلام فى إثبات هذا الحصر : أن الحق نقيض الباطل ، فالحق هو الموجود ، والباطل هو المعدوم ، فلما كان الحق سبحانه وتعالى حقاً فى ذاته وبذاته وصفاته ، وكان ممتنع التغير فى حقيقته ، كانت معرفته هى المعرفة الحقة ، وذكره هو الذكر الحق ، والدعوة إليه هى الدعوة الحقة .

أما كل ما سواه فهو ممكن لذاته ، ولا يكون حقاً لذاته ، فلا تكون معرفته واجبة التحقيق ، ولا ذكره ولا الدعوة إليه وإذا ثبت هذا ظهر تحقيق قوله تعالى : (له دعوة الحق) .

واعلم أن دعوة الحق تارة تكون من الحق للخلق إلى الحق ، وتارة تكون من الخلق للخلق إلى الحق .

أما الأول فنقول : أما أن دعوة الحق تكون من الحق فلانه تعالى هو الذى دعا القلوب إلى حضرته ، فلولا دعوته إلى تلك الحضرة ، وتوفيقه فى ذلك [ما كان] الوصول ، وإلا فمن أين يتمكن العقل البشرى من الوصول إلى حضرة الله تعالى . وأيضاً فلان مبادىء [٤] الحركات ، وأوائل المحدثات تنتهى إلى قدرة الله تعالى وقضائه وقدره ، ولهذا المعنى قال الله تعالى : (لله الأمر من قبل ومن بعد) [٥] . وأما أن تلك الدعوة للخلق فلقوله تعالى : (لمن

---

(١) سورة الرعد / ١٤ .
(٢) انظر الدر المنثور ٣ / ٢٠٠ .
(٣) سورة الكافرون / ٦ .
(٤) سورة المائدة الآية ٨٢ .
(٥) سورة الروم / ٤ .

الملك اليوم)[١] . وأما الانتهاء إلى الحق فلقوله تعالى : (**وأن إلى ربك المنتهى**) [٢] .

وأما أن دعوة الحق تارة تكون من الخلق فلقوله تعالى : (**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله**)[٣]. ولقوله : (**إننا سمعنا منادياً ينادى للايمان**)[٤].

* * *

الاسم الخامس « كلمة العدل » :

قال الله تعالى : (**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**) [٥]. قال عثمان بن مظعون الجمحى : ما أسلمت يوم أسلمت إلا حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه كان كثيراً ما يدعونى إلى الإسلام ، فاستحييت منه وأسلمت ، ولكن الإسلام ما كان مستقراً فى قلبى ، ثم إنه عليه السلام دعانى يوماً فجلست إليه ، فبينما هو يحدثنى إذ وقع بصرى على شخص ينزل من السماء ، فإذا هو جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ، (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) . العدل : شهادة ألا إله إلا الله ، والإحسان : القيام بالعبودية . قال عثمان : فوقع الإسلام فى قلبى[٦] .

وقال ابن عباس : العدل : شهادة ألا إله إلا الله ، والإحسان : الإخلاص فيه[٧] .

وقال آخرون : العدل مع الناس بالرعاية ، والإحسان مع نفسك بالطاعة[٣] قال تعالى : (**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم**)[٨] .

---

(١) سورة غافر / ١٦ .
(٢) سورة النجم / ٤٢ .
(٣) سورة فصلت / ٣٣ .
(٤) سورة آل عمران / ١٩٣ .
(٥) سورة النحل / ٩٠ .
(٦) انظر الدر المنثور ٣ / ٧٩ .
(٧) انظر تفسير القرطبى ١٠ / ٨٨ .
(٨) سورة الإسراء / ٧ .

وقال آخرون : العدل مع الأعضاء ، والإحسان مع القلب[١].

وقال آخرون : العدل : رؤية الافتقار إلى الحق ، والإحسان : مشاهدة الحق إلى كل شيء في الخلق[٢] .

واعلم أن السبب في تسمية هذه الكلمة بكلمة العدل وجوه :

الأول : أن العدل في كل شيء : تحصيل ما هو سبب اعتداله ، وكمال حاله . ومن المعلوم أن كمال القوى الحساسة في إدراك المحسوسات ، وكمال القوى الشهوانية في طلب الأشياء النافعة الجسمانية ، وكمال القوى الغضبية في دفع الأشياء الجسمانية المنافية ، وأما القوى العقلية وكمال حالها ، وغاية سعادتها ، فبأن ترسم فيها صور الحقائق ، وأشباه المعقولات كما هي ، حتى تصير القوى العقلية كالمرآة التي تتجلى فيها صور الوجود بتمامها .

ولا شك أن أشرف المعقولات وأعلاها : معرفة جلال الله وقدسه وعظمته وعزته ، فكان غاية المعقول ، واعتدال الأرواح البشرية ، والقوى العقلية : كونها مقبلة على هذه الحالة ، مستغرقة فيها . فلهذا السبب سميت كلمة لا إله إلا الله « كلمة العدل » .

السبب الثاني : أن هذه الكلمة إنما سميت بكلمة العدل لأن معرفة الله متوسطة بين الإفراط الذي هو التشبيه ، وبين التفريط الذي هو التعطيل : فمن بالغ في الإثبات وقع في التشبيه[٣] ، ومن بالغ في النفي وقع في التعطيل[٤] ، والحق هو طريق الاعتدال بين هذين الطرفين المتباينين .

السبب الثالث : من ترك النظر والاستدلال في معرفته الله تعالى ،

---

(١) انظر الدر المنثور ٢ / ٩٥ .

(٢) انظر الدر المنثور ٢ / ٩٥ .

(٣) يعني تشبيه الله تعالى بمخلوقاته حين يبالغ في إثبات الصفات المتشابهات كاليد والوجه والعين والرجل وغير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة .

(٤) يعني نفي هذه الصفات المتشابهات يوقع في تعطيل أوصاف وصف الله بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

وعول على الطريقة التى ألفها بحثه وخياله ، وقع فى الضلال . ومن توغل فى البحث ، وأراد الوصول إلى كنه العظمة ، وهوية الجلال ، تحير وتردد ، بل عمى ، فإن نور جلال الإلهية مما يعمى أحداق العقول البشرية ، فصار هذان الطرفان مذمومين .

والطريق المستقيم هو : أن يخوض الإنسان البحر المعتدل فى البحث ، ويترك التعمق ، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله : « تفكروا فى الخلق ، ولا تتفكروا فى الخالق[١] » .

فهذه هى الوجوه التى لأجلها سميت كلمة لا إله إلا الله كلمة العدل .

فإن قيل : كيف أمر الله تعالى بالعدل فى بحر التوحيد ، وقد قال تعالى : (**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم**) . فمن يعجز عن العدل فى حق النساء يقدر على العدل فى معرفة الأحد الصمد ؟

فالجواب : أنه تعالى أظهر عجزك فى الضعيف ، وأقدرك على الشريف ، لتعرف أن الكل منه سبحانه وتعالى[٢] .

* * *

الاسم السادس « الطيب (من القول) » :

قال تعالى فى سورة الحج : (**وهدوا إلى الطيب من القول**[٣]) . وأى كلمة توجد أطهر وأطيب من هذه الكلمة وقد قال تعالى : (**إنما المشركون نجس**[٤]) . ثم إن النجاسة الحاصلة بسبب كفر سبعين سنة تزول بسبب ذكر هذه الكلمة مرة واحدة .

---

(١) أخرجه أبو داود عن ابن عمر .

(٢) النساء : ١٢٩

(٣) وإنما عجز الإنسان عن العدل فى النساء لأنهن شهوة زينها الله للعباد فطيشت منهم العقول ، والعدل أساسه العقل . وإتماماً لرأى المؤلف ، فإن عجز الإنسان عن العدل فى الضعيف وقدرته عليه فى الشريف لإثبات أن قانون السبب والنتيجة بيد الله ، وهو وحده يستطيع إبطاله وتبديله ، لئلا يركن الإنسان إليه فيعبده من دون الله .

(٤) الحج : ٢٤ .

(٥) التوبة : ٢٨ .

وتحقيق القول فيه : أن الطيب هو اللذيذ . واللذة هي : إدراك الملائم. وقد بينا أن الملائم للقوى الحساسة : إدراك المحسوسات(١) ، والملائم للقوى الشهوانية : جلب النافع الجسماني ، وللقوة الغضبية دفع المنافي الجسماني(٢). وأما الملائم للقوة العقلية فهو إدراك جلال الله وقدسه وعظمته وعزته .

إذا عرفت هذا فنقول : إدراك القوة العاقلة أقوى من إدراك القوة الحساسة ، وسيأتي شرح هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى . وأما مدركات القوى الحساسة فهي الأعراض القائمة بالأجسام الكائنة الفاسدة ، ومدرك القوة العاقلة هو : ذات الله تعالى(٣) وعظمته وجلاله . وظاهر أنه كلما كان الإدراك أقوى والمدرك أشرف كانت اللذة الحاصلة بسبب ذلك الإدراك أشرف وأعلا .

فعلى هذا نسبة اللذة العقلية إلى اللذة الحسية في الشرف والقوة كنسبة الإدراك العقلي إلى الإدراك الحسي ، وكنسبة ذات الله تعالى وصفاته في الشرف والتعالي إلى الأعراض القائمة بالأجسام(٤). وكما أنه لا نهاية للنسبة الحاصلة بين هذين الإدراكين وبين هذين المدركين ، فكذلك لا نهاية للنسبة الحاصلة بين اللذات العقلية الحاصلة بسبب إدراك جلال الله وبين اللذات الحاصلة بسبب الروائح والطعوم وسائر المحسوسات(٥) .

وإذا عرفت هذا ظهر أن الطيب المطلق هو : معرفة ألا إله إلا الله ، وذكر لا إله إلا الله ، والاستغراق في أنوار جلال لا إله إلا الله ، فلهذا السبب قال تعالى : **(وهدوا إلى الطيب من القول)** . والمراد منه : كلمة لا إله إلا الله .

---

(١) الحج : ٢٤ .

(٢) التوبة : ٢٨ .

(٣) في ج (المحسوسات) .

(٤) في ج (دفع النافع الجسماني) خطأ .

(٥) بل هو ما يتعلق بذات الله تعالى ، أما ذات الله فليست من مدركات أي قوة بشرية .

(٦) قد تكون اللذات الحسية أشد أخذا للنفس من اللذات العقلية ، ولا يقاس شرف اللذة بشدة أخذها ، وإنما يقاس بآثارها ودوامها ، ومن هنا يتبين وجه الشرف والعلو في اللذة العقلية . ومن هنا قال أهل العلم : نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف .

والألف واللام فى لفظة (الطيب) للاستغراق ـ كأنه تعالى ينبه إلى أنه لا لذيذ ولاطيب إلا هذا ، وذلك هو الحق ، لأنابينا أن أطيب المحسوسات بالنسبة إلى طيب هذه الحالة عدم محض ، فلذلك بين بحرف الاستغراق أن كل طيب ليس إلا ذلك .



الاسم السابع « الكلمة الطيبة » :

قال الله تعالى(**ألم تركيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء**[1]) . اختلفوا فى أنه تعالى لم سماها كلمة طيبة على وجوه :

الأول : أنها طيبة بمعنى أنها طاهرة عن التشبيه والتعطيل ، ولكنها[2] متوسطة بينهما ، مباينة لكل واحدة منهما . كما أن اللبن خارج من بين الفرث والدم ، وهو مبرأ عنهما ، مصفى عن شائبة كل واحد منهما .

الثانى : أنها طيبة بمعنى أن صاحبها يكون طيب الاسم فى الدنيا ، طيب المسكن فى العقبى ، أما طيب اسمه فلقوله تعالى : (**والطيبات للطيبين**[3]). وأراد به المؤمنين والمؤمنات[4] . وأما طيب المسكن فلقوله : (**ومساكن طيبة فى جنات عدن**)[5] .

الثالث : أنها طيبة بمعنى أنها مقبولة ، يقبلها الله تعالى ، وتصعد إليه ، كما قال تعالى : (**إليه يصعد الكلم الطيب**[6]) . قالوا : والسبب فى أن

---

(١) سورة ابراهيم / ٢٤ .
(٢) فى ج (ولأنها) .
(٣) سورة النور / ٢٦ . وفى الأصول (ومثل كلمة طيبة) خطأ .
(٤) انظر الدر المنثور ٢ / ٢٥٠ .
(٥) سورة التوبة / ٧٢ .
(٦) سورة فاطر / ١٠ .

هذه الكلمة تصعد إلى الله تعالى بذاتها : أنها طيبة . وقال عليه السلام : « إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب »(١) .

وتمام التحقيق فيه : أن العقل والروح عاشقان على التحلى والمعرفة والمكاشفة على ما سبق تقريره بالبرهان ، والمعرفة مجذوبة إلى المعروف وإذا تصاعد العرفان إلى المعروف — والعارف ملازم للعرفان — انجذب العارف إلى المعروف ، وصعد إليه . فذلك هو المراد من قوله : (إليه يصعد الكلم الطيب) .

فإن قيل : قال المفسرون : الشجرة الطيبة هى النخلة(٢) . فما السبب فى تشبيه كلمة التوحيد بالنخلة(٣) ؟

فالجواب عنه من وجوه :

الأول : أن شجرة النخلة لا تنبت فى جميع البلدان ، بل فى البعض دون البعض ، فكذلك كلمة التوحيد لا تجرى على كل لسان ، ومعرفة التوحيد لا تحصل فى كل قلب .

الثانى : أن النخلة أطول الأشجار ، وكذا كلمة التوحيد أعلا الكلمات.

الثالث : أن الشجرة الطيبة ثابتة فى الأرض ، وفروعها فى السماء ، فهكذا أصل الكلمة الطيبة ثابت فى القلب ، وهو المعرفة ، وفرعها ثابت فى السماء (إليه يصعد الكلم الطيب) .

الرابع : أن النخلة تحمل كل سنة مرتين ، فكذلك الإيمان يحمل فى الدنيامرة فيثاب [المؤمن] لأجل إيمانه بأهلية الشهادة والولاية والأمانة : ومرة أخرى فى الآخرة ، وهى الجنة الباقية ، والنعمة الدائمة .

---

(١) أخرجه أبوداود عن ابن عمر .

(٢) انظر تفسير القرطبى ٩ / ١٥ .

(٣) على هامش ج (الكلمة الطيبة) . من نسخة أخرى . وهما بمعنى واحد .

الخامس : أن النخلة وإن حصل فى وسط ثمرتها نواة لا خير فيها ولا منفعة ، فإن قيمة تلك الثمرة[1] لا تنقص بسبب تلك النواة ، وكذا كلمة التوحيد وإن كان يحصل معها شىء من المعاصى إلا أن قيمتها لا تنقص بسبب ذلك (**ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم**) .

السادس : أن النخلة أسفلها الذى يقرب من الناس كله شوك ، والثمرة والمنفعة لا تحصل إلا عن أعلاها ، فكذلك الدين ، أوله التكاليف الشاقة التى هى كالشوك ، وفى أعلاه الثمرة الحلوة اللذيذة ، التى هى الجنة والمعرفة[2] .



الاسم الثامن « القول الثابت » :

قال الله تعالى : (**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**[3]) . وعلة التسمية من وجوه :

الأول : أن المذكور المعلوم ثابت واجب الثبوت لذاته ، ممتنع العدم لذاته . والقول والاعتقاد يتبعان المقول والمعتقد ، فلما كان المقول والمعتقد واجب الثبوت لذاته ، كان القول والاعتقاد كذلك ، فلهذا سماه الله بالقول الثابت .

الثانى : أن هذا القول ثابت لا يؤثر الذنب فيه ، بل هو مؤثر فى إزالة الذنب ، لأن الموحد وإن عظمت ذنوبه ، إلا أنه ترجى له المغفرة ،

---

(١) فى د (قيمة تلك الشجرة) .   (٢) الزمر : ٥٣ .

(٣) هذه الإجابات الستة لا تقتصر على النخلة وحدها ، بل يشترك فيها مع النخلة كثير من الأشجار .. ويمكن أن يكون الجواب : أن ثمر النخيل غذاء يمكن أن يستقل بهالجسم الإنسانى ، ويعيش عليه وحده ، كما فى البوادى ، وكذلك ثمرات كلمة التوحيد وهى الإيمان غذاء كامل للروح تستغنى به عن جميع العلوم .. وكذلك فالنخلة طويلة العمر ، وهى تثمر فى كل البيئات ، وكذلك كلمة التوحيد تثمر فى كل زمان ومكان .

(٤) إبراهيم : ٢٧ .

قال الله تعالى : (**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**[١]) . والكافر وإن عظم كفره إذا رجع من الكفر إلى التوحيد هدم التوحيد كفره . .

الثالث : أن هذه الكلمة ثابتة فى الآخرة ، لا ترتفع عن العبيد ، وذلك لأن أهل الجنة يشتغلون[٢] فى الجنة بذكر التوحيد . ألا ترى أن الله أخبر عنهم بقوله : (**وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن**[٣]) . (**وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده**[٤]) . (**الحمد لله الذى هدانا لهذا**)[٥] .

الرابع : أنها ثابتة لأن أصلها محكم ، وذلك لأن أول من شهد هذه الشهادة هو الله تعالى ، بدليل قوله تعالى : (**شهد الله أنه لا إله إلا هو**[٦]) . فشهادة جميع الشاهدين بتوحيد الله تعالى فرع على شهادة الله ، وشهادة الله هى الأصل ، فكل شهادة أصلها شهادة الله فهى ثابتة فى الدنيا والآخرة .

الخامس : أن الإنسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار ، ومع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء والنار .

أما بيان أن الإنسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار ، فإن فرعون أغرق فى الماء أولا ، ثم انتقل من الماء إلى النار ، بدليل قوله تعالى : (**أغرقوا فأدخلوا نارا**[٧]) وعجل السامرى[٨] أحرق بالنار

---

(١) سورة النساء / ١١٦ .
(٢) فى ج (مشغولون) .
(٣) سورة فاطر / ٣٤ .
(٤) سورة الزمر / ٧٤ .
(٥) سورة الأعراف / ٤٣ .
(٦) سورة آل عمران / ١٨ .
(٧) سورة نوح / ٢٥ .
(٨) هو عجل صنعه موسى السامرى من بنى إسرائيل جاء وصفه فى سورة طه فى قوله تعالى : (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقال هذا إلهكم وإله موسى فنسى) . وعبده بنو إسرائيل فى غيبة موسى وقالوا لهارون : (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) .

أولا ، ثم نقل من النار إلى الماء . بدليل قوله تعالى : (**لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا**)(١) .

وأما أنه مع هذه الكلمة لايعمل فيه الماء ولا النار ، فإن إبراهيم وموسى عليه السلام كانا مع حقيقة هذه الكلمة ، فلم تعمل النار فى إبراهيم **قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم** (٢) . ولم يعمل الماء فى موسى **فإذا خفت عليه فألقيه فى أليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** (٣) .

الأسم التاسع « كلمة التقوى » :

قال الله تعالى : (**وألزمهم كلمة التقوى**(٤)). وفى سبب هذه التسمية وجوه

الأول : أنه لما أتقى صاحب هذه الكلمة أن يصف ربه بما وصفه به المشركون وصفت(٥) هذه الكلمة بأنها كلمة التقوى ، ورأس التقوى ، إتقاء لكلمة الكفر .

ثم فى هذه الآية إشارة وبشارة .

أما الإشارة فهى أنه تعالى سمى نفسه « أهل التقوى » فقال : (**هو أهل التقوى وأهل المغفرة**)(٦) . وسمى الموحدين أهل كلمة التقوى فقال : (**وألزمهم كلمة التقوى**) . وكأنه تعالى يقول : أنا أهل أن أكون مذكوراً بهذه الكلمة ، وأنت أهل لذكر هذه الكلمة ، فما أعظم هذا الشرف .

---

(١) سورة طه / ٩٧ .
(٢) سورة الأنبياء / ٦٩ .
(٣) سورة القصص / ٧ .
(٤) سورة الفتح / ٢٦ .
(٥) فى ج (وصفها) . خطأ .
(٦) سورة المدثر / ٥٦ .

وأما البشارة فهى أنه تعالى قال وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها)[١] : فأثبت أن الموحدين أحق الخلق بهذه الكلمة ، وهم أهل هذه الكلمة ، وأنه كريم لا ينزع الحق عن مستحقه ، فهذا يدل على أنه لا ينزع الإيمان من قلب المؤمن .

الثانى فى بيان أنه لم سميت هذه الكلمة بكلمة التقوى : هو أن هذه الكلمة واقية لبدنك من السيف ، ولما لك من الاستغنام ، ولزمتك من الجزية ، ولأولادك من السبى[٢] ، فإن إنضاف القلب إلى اللسان صارت واقية لقلبك عن الكفر ، وإن إنضم التوفيق إليه صارت واقية لجوارحك عن المعاصى ، ثم قال . (وألزمهم كلمة التقوى) . أى . نحن ألزمناهم بهذه الكلمة التى هى المفتاح لباب الجنة ، فنحن أردناهم أولا ، وهم ما أرادونا[٣] فلنا المنة عليهم فى فتح هذا الباب ، وتقريره بقوله تعالى : (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان)[٤] .

الإسم العاشر « الكلمة الباقية » :

روى عن كثير من المفسرين أنهم قالوا فى تفسير قوله تعالى : (وجعلها كلمة باقية فى عقبة)[٥] . أنها قول لا إله إلا الله[٦] . ويدل عليه وجوه .

الأول : مقامة هذه الآية ، وهى قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم

---

(١) سورة الفتح / ٢٦ .

(٢) فى ج (من الاسترقاق) .

(٣) يريد : قبل أن يريدونا ، وتلك عادة الله مع عباده ، أن يبدأهم بالعطاء ... قال تعالى : (يحبهم ويحبونه) . وقال : (ثم تاب عليهم ليتوبوا) . وقال : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) . . إلى آخر ما قال تعالى

(٤) سورة الحجرات / ١٧ .

(٥) سوره الزخرف / ٢٨ .

(٦) تفسير الخازن ٣ / ٨٦ .

لأبيه وقومه إنى برىء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين)[١] . وكأن معنى قوله . (إنى برىء) نفى الإلهية عن الأشياء التى كانوا يعبدونها ، ثم قال . (إلا الذى فطرنى) . فكان فيه إثبات الإلهية للذى فطره ، فإذا حصل هذان المعنيان كان مجموعهما هو قول . لا إله إلا الله . ثم قال . (وجعلها كلمة باقية فى عقبة)[٢] . فثبت أن المراد من الكلمة الباقية قول لا إله إلا الله .

الثانى : أنه تعالى قال فى سورة القصص : (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه)[٣] . فبين أن كل شىء هالك إلا هو ، فإنه واجب الدوام والبقاء . والسرمدية ، وقد عرفت أن القول تبع المقول ، والإعتقاد تبع المعتقد فكان صدق لا إله إلا الله وحقيقة لا إله إلا الله واجبى الثبوت والبقاء والدوام ، وذلك هو المراد بكونها باقيـــة .

الثالث : أنا بينا أن التوحيد لا يزول بسبب المعصية ، والمعصية تزول بسبب التوحيد ، وأيضاً التوحيد يبقى مع أهل الجنة ، وسائر الطاعات لا تبقى ، روى جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل أن الله يقول يوم القيامة . مالى أرى فلان بن فلان فى صفوف أهل النـار ؟ فأقول . يارب إنا لم نجد له حسنة . فيقول الله تعالى . إنى سمعته فى الدنيا يقول . يا حنان يا منان ، فأذهب إليه فسله . فيأتيه فيجده فى زاوية من زوايا جهنم يقول . يا حنان يا منان ، فيسأله جبريل عن هذه الكلمة ، فيقول . وهل حنان منان غير الله . قال جبريل . فآخذ بيده من صفوف أهل النار ، فأدخله فى صفوف أهل الجنة[٤] .

---

(١) سورة الزخرف / ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سورة الزخرف / ٢٨ .
(٣) سورة القصص / ٨٨ .
(٤) لم أعثر عن هذا الحديث فيما لدى من مصادر .

الاسم الحادى عشر « كلمة الله العليا » :

قال الله تعالى : (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى و كلمة الله هى العليا) [١] . وأعلم أن السبب فى علو هذه الكلمة وجوه :

الأول : هو أن القلب إذا تجلى فيه نور هذه الكلمة كان ذلك التجلى نور الربوبية ، ونور الربوبية إذا تجلى فى القلب استعقب حصول قوة وهيبة ربانية ، ولهذا السبب صار المتحققون بهذه الكلمة يستحقرون الأحوال الدنيوية ويستحقرون عظماء الملوك [٢] ، ولا يبالون بالقتل [٣] ، ولا يقيمون لشىء من طيبات الدنيا وزنا ، وكل ذلك يدل على استعلاء قوة هذه الكلمة .

وانظر إلى استغراق سحرة فرعون لما تجلى لهم نور هذه الكلمة ، كيف لم يلتفتوا إلى قطع الأيدى والأرجل ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لما استغرق فى هذا النور لم يلتفت إلى الملكوت ، كما قال تعالى : (ما زاغ البصر وما طغى) [٤] .

السبب الثانى فى كون هذه الكلمة عالية : استعلاؤها فى الدنيا على سائر الأديان ، كما قال تعالى : (ليظهره على الدين كله) [٥] .

الثالث : كونها مستعلية على جميع الذنوب ، فإنها تزيل جميع الذنوب ، وشىء من الذنوب لا يزيل نور هذه الكلمة .

* * *

---

(١) سورة التوبة / ٤٠ .
(٢) بل ويراهم الناس كذلك . قالت أم ولد هرون الرشيد حين رأت تكاثر الناس حول عبد الله بن المبارك : « هذا هو الملك لا ملك الرشيد الذى يساق إليه الناس بالشرط والعصا » .
(٣) يظهر ذلك من مسارعة الصحابة إلى الاستشهاد ، وسؤال الله إياه .
(٤) سورة النجم / ١٧ .
(٥) سورة التوبة / ٣٣ .

الاسم الثانى عشر « المثل الأعلى » :

قال قتادة فى قوله تعالى : (ولله المثل الأعلى)[١] : معناه قول لا إله إلا الله . . واعلم أن معنى المثل هنا الصفة ؛ كذا قال أهل اللغة ، ونظيره قوله تعالى : (مثل الجنة التى وعد المتقون)[٢] . أى صفتها . فصار المراد من قوله : (ولله المثل الأعلى) عين المراد من قوله : (وكلمة الله هى العليا)

* * *

الاسم الثالث عشر «كلمة السواء » :

قال الله تعالى : (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) [٣] قال أبو العالية الرياحى : هى كلمة لا إله إلا الله ؛ والدليل عليه أنه تعالى قال بعده : (ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا)[٤] . ولا معنى لهذه الآية إلا ما هو المراد من قول لا إله إلا الله . فثبت أن المراد من كلمة السواء هو كلمة لا إله إلا الله .

ومما يقرر ذلك : أن جميع العقول معترفة بصحة لا إله إلا الله : وجميع الألسنة ناطقة بها ، وجميع الرقاب خاضعة لها ، قال الله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله)[٥] .

وأيضا يحتمل أنها سميت كلمة السواء لأنها تفيد الاستواء فى الدين والعقل والروح ، وتوجب الاستقامة ، وترك الاعوجاج فى الأمور .

* * *

الاسم الرابع عشر « كلمة النجاة » .

والذى يدل عليه القرآن والحديث والعقول :

أما القرآن فمن وجهين :

---

(١) سورة النحل / ٦٠ .
(٢) سورة الرعد / ٣٥ .
(٣) سورة آل عمران / ٦٤ .
(٤) سورة آل عمران / ٦٤ .
(٥) سورة العنكبوت / ٦١

الأول : قوله تعالى : (**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**)(١) . فهذه الآية صريحة في أن النجاة لا تحصل بدون الإيمان بلا إله إلا الله ، وتحصل مع الإيمان بلا إله إلا الله .

والثاني : قوله تعالى : (**ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار**)(٢) . النجاة قول لا إله إلا الله .

وأما الأخبار فيدل عليه الأخبار التي ذكرناها في الفصل الثاني ، ونزيد ههنا أخبار أخرى :

أحدها ما روى جابر بن عبد الله أنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الموحدين فقال : « من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ، ومن لقي الله يشرك به شيئا دخل النار(٣) » .

وثانيها : عن أبي سعيد الخدري قال : قال عليه السلام : « لقنوا موتاكم شهادة ألا إله إلا الله »(٤) .

وثالثها : رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلحة بن عبيد الله مقبلا مغموما بعد رسول الله عليه السلام ، فقال : مالك ؟ قال : سمعت عن رسول الله صلى الله علية وسلم حديثا ما منعني أن أسأله إلا القدرة علية حتى مات ، سمعته يقول : « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه ، ونفس الله بها كربته » . فقال : إني لأعلم ما هي ، فقال : وما هي ؟ قال : الكلمة التي أمر بها عمه عند الموت ، وهي : لا إله إلا الله ، فقال طلحة : صدقت ، هي والله(٥) .

ورابعها : روى أبو أمامة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه

---

(١) سورة النساء / ٤٨ . (٢) سورة غافر / ٤١ .
(٣) أخرجه أحمد وأبوداود والترمذي . (٤) أخرجه أبوداود وابن ماجة .
(٥) أخرجه أحمد عن عمر وعن جابر وعن عثمان .

وسلم أبا بكر ينادى فى الناس : « من شهد ألاإله إلاالله دخل الجنة(١)

وخامسها : قال معاذ بن جبل حين حضرته الوفاة : اكشفوا عنى سجف القبة حتى أحدثكم حديثا ، سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يمنعنى أن أحدثكموه إلا أن تتكلوا ، أو تتركوا العمل ، وتردوا إلى النار . سمعته يقول : « من قال : لا إله إلا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة ، ولم تمسه النار(٢) » .

وسادسها : عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال : أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، يجرى بها لسانه ، ويطمئن بها قلبه ، حرمت عليه النار(٣) » .

وسابعها : روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى ذر : « ناد فى الناس : من شهد ألا إله إلا الله وجبت له الجنة . قال أبو ذر : وإن زنا وإن سرق ؟ قال : وإن زنا وإن سرق ، حتى قالها ثلاث مرات ، فقال فى الثالثة : وإن زنا وإن سرق على رغم أنف أبى ذر(٤) » .

وثامنها : روى معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله : وفاضت نفسه بعده ، دخل الجنة(٥) »

* * *

الاسم الخامس عشر « العهد » :

قال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى (لا يملكون الشفاعة إلا من

---

(١) أخرجه أحمد والترمذى .

(٢) أخرجه النسائى وابن ماجه والطبرانى فى الأوسط .

(٣) أخرجه مسلم وابن ماجة والترمذى .

(٤) الحديث مروى عن أبى ذر عند الشيخين مع اختلاف فى اللفظ ، وقد أخطأ المؤلف فى إيراده عن أبى الدرداء ولم أجده بهذا السياق عن أبى الدرداء .

(٥) أخرجه الترمذى والدارمى وابن ماجه وأحمد .

من اتخذ عند الرحمن عهداً)[1] العهد هو قول لا إله إلا الله : وأقول : الذى يدل على صحة هذا القول وجوه :

الأول : أن قوله : (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) نكرة فى طرف الثبوت ، وذلك لا يفيد إلا عهدا واحدا ، فهذه الآية تدل على أن تلك الشفاعة تحصل بسبب عهد واحد ، ثم أجمعنا على أن ما سوى الإيمان فإن الواحد منه ، بل مجموعه لا يفيد تلك الشفاعة ألبتة ، فوجب أن يكون العهد الواحد الذى يفيد تلك الشفاعة هو الإيمان ، وهو قول : لا إله إلا الله.

والثانى : أن جماعة من المفسرين قالوا فى تفسير قوله تعالى : (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم)[2] هو عهد الإيمان ، بدليل أن لفظ العهد مجمل ، فلما أعقبه بقوله : (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم)[3]. علمنا أن المراد من ذلك العهد هو الإيمان ، وهو قول لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

والثالث : أن أول ما وقع من العهد قوله تعالى (ألست بربكم قالوا بلى)[4] . وذلك فى الحقيقة هو قول لا إله إلا الله . فكان لفظ العهد محمولا عليه .

والرابع : أنه تعالى قال : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم)[5].

فكأن العهد من جانبك عهد الإقرار بالعبودية ، ومن جانب الحق سبحانه وتعالى عهد الكرم والربوبية . فثبت بهذه الوجوه : أن المراد من قوله : (إلا من اتخذ عند الله عهدا) هو قول لا إله إلا الله .

الخامس : قوله تعالى : (قل اتخذتم عند الله عهدا) (٦) . أى

---

(١) سورة مريم / ٨٧ .
(٢) سورة البقرة / ٤٠
(٣) سورة البقرة / ٤١ .
(٤) سورة الأعراف / ١٧٢ .
(٥) سورة التوبة / ١١١ .
(٦) سورة البقرة / ٨٠ .

قلتم لا إله إلا الله(١) :

* * *

الاسم السادس عشر «كلمة الاستقامة» :

قال الله تعالى : **(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا)**(٢) : قال ابن مسعود رضى الله عنه : المراد من قوله تعالى : (استقاموا) هو قول لا إله إلا الله(٣) . وذلك لأن قولهم : (ربنا الله) إقرار بوجود الرب ، ثم إن من المقرين بذلك من أثبت له ندا أو شريكا . فالذين نفوا الشركاء والأضداد هم الذين استقاموا على النهج القويم والصراط المستقيم .

واعلم أن السلامة فى القيامة بقدر الاستقامة فى نفى الشركاء . فمن الناس من أنكر الوحدانية ، وهو الشرك الظاهر ، والاستقامة فى الدين لا تحصل إلا بنفى الشركاء ، كما قال تعالى : **(فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)**(٤)

ومنهم من أقر بالوحدانية فى الظاهر ، إلا أنه يقول قولا يهدم ذلك التوحيد ، مثل أن يضيف السعادة والنحوسة إلى الكواكب ، ويضيف الصحة والمرض إلى الدواء والغذاء ، ويضيف الفعل إلى العبد على سبيل الاستقلال(٥) ، فكل ذلك يبطل الاستقامة فى معرفة الحق سبحانه وتعالى :

ومنهم من ترك كل ذلك ، ولكنه قد يطيع النفس والشهوة فى بعض الأفعال ، وإليه الإشارة بقوله : **(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)**(٦) . وهذا النوع من الشرك هو المسمى بالشرك الخفى ، وهو المراد من قوله تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : **(واجعلنا مسلمين لك)**(٧) . وقول

---

(١) الدر المنثور ١ / ٢٤٠ . (٢) سورة فصلت / ٣٠ .

(٣) الدر المنثور ٤ / ٦٥ . (٤) سورة البقرة / ٢٢ .

(٥) وجماع ذلك كله : نسيان المسبب ، والنظر إلى السبب حتى ينتهى الأمر إلى عبادة السبب والأشخاص .

(٦) سورة الجاثية / ٢٣ . (٧) سورة البقرة / ١٢٨ .

يوسف عليه السلام : ﴿توفنى مسلما﴾(١) . فإن الأنبياء عليهم السلام مبرءون عن الشرك الجلى ، أما الحالة المسماة بالشرك الخفى ، وهو الالتفات إلى غير الله ، فالبشر لا ينفك عنه فى جميع الأوقات ، فلذلك السبب تضرع الأنبياء عليهم السلام إلى الله تعالى فى أن يصرفه عنهم(٢) .

* * *

الاسم السابع عشر « مقاليد السموات والأرض » :

قال الله تعالى : ﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾(٣) .قال ابن عباس: هو قول لا إله إلا الله(٤) وأقول : هذا هو الحق ، ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه تعالى بين أنه لو كان فى الوجود إلهان لحصل الفساد فى العالم ، ولاختلت المصالح ، قال الله تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ (٥) . فثبت أن الشرك سبب لفساد العالم ، وأن التوحيد سبب لانتظام العالم ، فثبت أن مقاليد السموات والأرض هو قول : لا إله إلا الله .

الثانى : أنا بينا أن الشرك سبب لفساد العالم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا** ﴾ (٦) . وإذا كان كذلك كان التوحيد سببا لعمران العالم .

الثالث : أن أبواب السموات لا تفتح عند الدعاء إلا بقول لا إله إلا الله، وأبواب الجنان لا تفتح إلا بهذا القول ، وأبواب النيران لا تغلق إلا بهذا القول ، وباب القلب لا يفتح إلا بهذه الكلمة ، وأنواع الوساوس لا تندفع إلا بهذا القول ، فكانت هذه الكلمة أشرف مقاليد السموات والأرض ، وأعز مفاتيح الأرواح والنفوس والأجسام والعقول(٦) .

* * *

---

(١) سورة يوسف / ١٠١ .

(٢) على هامش ج (أن يصونهم عنه) . من نسخة أخرى .

(٣) سورة الزمر / ٦٣ . (٤) تفسير القرطبى ١٦ / ٩٥ .

(٥) سورة الأنبياء / ٢٢ .

(٦) سورة مريم / ٩٠ . وهذا السبب والذى قبله واحد ، ولا أدرى لم جعله المؤلف سببا مستقلا .

الاسم الثامن عشر « السديد » :

قال الله تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا)**(١) قيل فى تفسيره : للفعيل قد يكون بمعنى الفاعل ، كالسميع بمعنى السامع ، وقد يكون بمعنى المفعول ، كالقتيل بمعنى المقتول ، والجريح بمعنى المجروح. فإذا جعلته بمعنى الفاعل كان معناه : أنه يسد على صاحبه أبواب جهنم . وإذا حملته(٢) على معنى المفعول كان معناه : أنه يسد عن أن يضيره شىء من الذنوب .

وأيضا فان ذا القرنين بنى السد دفعا لضرر يأجوج ومأجوج ، والله تعالى جعل الإيمان سد الضرر الشياطين من الجن والإنس .

* * *

الاسم التاسع عشر « البر » :

قال الله تعالى : **(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر)** (٣) . والإشارة فى الآية : أن من كان مشتغلا بجميع الجوانب والجهات لم يكن صاحب البر ، إنما صاحب للبر هو الذى يتوجه إلى صاحب الكعبة **(إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا)**(٤) . فقوله : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) إشارة إلى الكثرة والقول بالشركاء ، وقوله : (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) إشارة إلى التوحيد ، فصار معناه هو المفهوم من قول لا إله إلا الله .

* * *

ويصير المعنى : له كل الدلائل التى تدل على توحيده وانفراده بالخلق والأمر ، بدليل قوله قبل هذه الآية : (الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل) . وبعدها : (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) .

(١) سورة الأحزاب / ٧٠ . (٢) فى ج (حملته) .

(٣) سورة البقرة / ١٧٧ . (٤) سورة الأنعام / ٧٩ .

الاسم العشرون « الدين » :

قال الله تعالى **(ألا لله الدين الخالص)** (١) ، واعلم أن الدين هو : الانقياد والخضوع . قال عليه السلام فى دعواته : « يامن دانت له الرقاب » (٢) . أى خضعت . فقوله : (ألا لله الدين الخالص) . أى : له الخضوع والخشوع لا لغيره . وإنما يكون كذلك إذا كان واحدا فى إلهيته ، إذ لو وجد إلاهان لكان كما أن الخضوع لأحدهما حاصل كان أيضا حاصلا للثانى ، فلا يمكن حصر ثبوت الخضوع إلا لله فقط ، فالحصر دل على أنه لا إله سواه ، ولا معبود إلا إياه .

* * *

الاسم الحادى والعشرون « الصراط » :

قال تعالى : **(اهدنا الصراط المستقيم)**(٣) . وقال حكاية عن رسوله : **(وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه)**(٤) . وقال : **(وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض)**(٥) .

واعلم أنه هذا الصراط المستقيم هو قول لا إله إلا الله . وذلك باعتبار أن حدوث كل محدث ، وإمكان كل ممكن ؛ يحوجه إلى المؤثر الذى يوجده وينقله من العدم إلى الوجود ؛ وإذا كان الموجد والمدبر واحدا ، فمتى نسبت حدوث المحدثات ، ووجود الممكنات إلى قدرته كان ذلك صراطا مستقيما ، وطريقا قويما . ومتى نسبت حدوث محدث ، ووجود ممكن إلى غير قدرته ، كان ذلك طريقاً معوجا ، وسبيلا منحرفا . فثبت أن الصراط المستقيم لا يحصل إلا بإسناد كل الحوادث والممكنات إلى تخليق الله وتكوينه ،

---

(١) سورة الزمر / ٣ .
(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات عن ابن عمرو بن العاص .
(٣) سورة الفاتحة / ٥ . (٤) سورة الأنعام / ١٥٣
(٥) سورة الشورى / ٥٢ .

وإسناد الكل إليه ، فهو التوحيد . فثبت أن الصراط المستقيم هو قولنا : لا إله إلا الله .

* * *

الاسم الثانى والعشرون « كلمة الحق » :

لقوله تعالى : (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق)(١) . يعنى قول لا إله إلا الله (٢) .

* * *

الاسم الثالث والعشرون « العروة الوثقى » :

قال الله تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) (٣) . يعنى : بكلمة لا إله إلا الله(٤) .

* * *

الاسم الرابع والعشرون « كلمة الصدق » :

لقوله تعالى : (والذى جاء بالصدق وصدق به) (٥) . أى قول لا إله إلا الله(٦) .

* * *

فهذا جملة الكلام فى لا إله إلا الله . . اللهم بحق أسمائك الطاهرة المقدسة ، أن تحفظ بحفظك معرفة هذه الكلمة فى قلوبنا ، وذكرها على ألسنتنا ، يا أرحم الراحمين .

* * *

---

(١) سورة الزخرف / ٨٦ .
(٢) تفسير الخازن ٤ / ١٥ .
(٣) سورة البقرة / ٢٥٦ .
(٤) انظر القرطبى ١٧ / ١٩٥ .
(٥) سورة الزمر / ٣٣ .
(٦) انظر القرطبى ١٥ / ٩٧ .

الفصل الرابع
فى الأشياء التى شبه الله تعالى بها كلمة التوحيد

(الأول : النار) :

الأول : أن الله تعالى شبه الإيمان ، بالنار : فقال : **(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا)** (١) . وقال فى آية أخرى : **(ومما توقدون عليه فى النار)**(٢) . وفيه إشارتان :

الأولى : كما أن النار إذا عرضت عليها الذهب المغشوش أحرقت كل ما فيه من الغش ، وبقى جوهر الذهب سليما عن الاحتراق ، فكذلك يوم القيامة ، إذا عرض المذنب على النار أحرقت ذنوبه ومعاصيه ، وبقى إيمانه سليما من الإحراق .

الثانية : أن النار تحرق كل شىء ، وكذا الإيمان إذا قوى نوره أحرق ما سوى محبة الله تعالى عن القلب ، **(قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)**(٣)

* * *

(الثانى : النور) :

النوع الثانى من الأمور التى شبه الله بها الإيمان : النور ، قال الله تعالى : **(مثل نوره)**(٤) . والسبب فى أنه تعالى أضاف المعرفة إلى نفسه وجوه :

الأول : أنه تعالى إنما أضاف المعرفة إلى نفسه قطعا للأطماع عنها ،

---

(١) سورة البقرة / ١٧ .

(٢) سورة الرعد / ١٧ . وهذه الآية هى التى تدل على أن النار تذهب الزبد وتبقى ما ينفع الناس .

(٣) سورة الأنعام / ٩١ . (٤) سورة النور / ٣٥ .

وذلك لأنها جوهرة نفيسة ، وقيمتها رفيعة ، وصاحبها غافل ، والشيطان محتال مكار ، وأجل مقصوده أن يسلب المعرفة من العارف ، ويحول بينه وبينها ، والله تعالى برحمته جعل المعرفة فى حمايته ، حتى ينقطع طمع إبليس عنها.

وتحقيقه : أنه لما قال : **(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان)** (١) فلما أضاف الغباء إلى نفسه انقطع طمع إبليس عنهم فقال : **(فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين)**(٢) . فهنا لما أضاف الإيمان إلى نفسه بقوله : (مثل نوره) لا جرم كان إبليس منقطعا عنه .

الثانى : أن كل ما للعبد فهو للحق ، لأنه حصل بتخليقه وإيجاده : فاذا بلغ العبد درجة يشهد فيها هذه الحالة فقد كملت حاله ، فعند ذلك قيل له : كل ماله فهو لنا وكل مالنا فهو له . والمعرفة التى له فهى لنا ، فلا جرم أضافها الى نفسة فقال : (مثل نوره) .

الثالث : أن تخصيص الشىء باضافته إلى الله تعالى سبب لتشريفه ، كما فى قوله : **(وطهر بيتى)**(٦) وقوله : **(هذه ناقة الله)**(٣) . وقوله : **(وأنه لما قام عبد الله)**(٤) . فكذا هنا ، إضافة المعرفة إلى نفسه تدل على أنها أشرف الخلع والتشريفات .

ثم ههنا سؤالات :

السؤال الأول : ما الحكمة فى أنه شبه نور المعرفة بنور السراج حيث قال : **(مثل نوره كمشكاة فيها مصباح)** ؟

والجواب من وجوه :

الأول : أن البيت إذا كان فيه سراج لم يتجاسر اللص على دخوله ، مخافة أن يفتضح ، وكذا القلب ، إذا كان فيه سراج المعرفة لم يتجاسر الشيطان على دخوله مخافة أن يفتضح .

---

(١) سورة الحجر / ٤٢ . (٢) سورة ص / ٨٢ .
(٣) سورة الأعراف / ٧٣ . (٤) سورة الجن / / ١٩ .

الثانى : أن البيت إذا كان فيه سراج اهتدى صاحبه إلى طلب الأمتعة ، فكذلك القلب إذا كان فيه سراج المعرفة ، استدل صاحبه إلى المشروع فى للطاعات . .

الثالث : إذا كان فى البيت سراج انتفع بضيائه كل أحد من غير أن ينقص من استضاءة صاحبه بنوره [شيئاً] . وكذا كل قلب كان فيه سراج المعرفة انتفع بنوره غير صاحبه ، من غير أن ينقص من نور صاحبه شىء . .

الرابع : أن السراج إذا كان فى البيت ، وكان موضوعا فى كوة مسدودة بزجاجة ، أضاء داخل البيت وخارجه ، وكذلك سراج المعرفة يضىء القلب وخارج القلب ، حتى يظهر نوره على الأذنين والعينين واللسان : فيظهر فنون الطاعات فى هذه الأعضاء ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : «اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى سمعى نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى عظمى نورا ، وفى مخى نورا »[1] . .

الخامس : أن البيت إذا كان فيه سراج كان صاحبه مستأنساً مسروراً ، فإذا طفىء السراج صار مستوحشا ، فكذلك القلب ، ما دام فيه سراج المعرفة : كان صاحبه مستأنسا مسروراً ، فإذا فارقه والعياذ بالله صار حزينا مغموما ، قال الله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾[2] . .

السادس : أن جرم السراج صغير ، وضوءه منتشر عن كل جانب ، فكذلك ضوء المعرفة ينتشر من القلب إلى جميع الجوانب كما قال الله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[3] . وخصوصا من الجانب العلوى ، قال الله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾[4] .

---

(١) اخرجه الترمذى فى الدعوات عن ابن مسعود .
(٢) سورة الأنعام / ١٢٥ . (٣) سورة البقرة / ١١٥ .
(٤) سورة فاطر / ١٠

السؤال الثانى : ما الفرق بين سراج الدنيا الذى هو الشمس وبين سراج المعرفة ؟

والجواب : الفرق من وجوه .

الأول : أن الشمس تحجبها غمامة ، والمعرفة لاتحجبها سبع سموات..

الثانى : أن الشمس تغيب بالليل ، والمعرفة لا تغيب لا ليلا ولا نهارا ، بل هى فى الليل آكد ، قال الله تعالى : (**إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا**)(١) . وقال تعالى : (**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا**)(٢) . وقال : (**ليلة القدر خير من ألف شهر**)(٣) . .

الثالث : أن الشمس تفنى . قال الله تعالى : (**إذا الشمس كورت**). وأما المعرفة فلا تفنى . قال الله تعالى : (**كل شيء هالك إلا وجهه**)(٤) . أى إلا ما حصل بمعناه . .

الرابع : الشمس تنكسف ، والمعرفة لا تنكسف(٥) . .

الخامس : الشمس تسود الأشياء ، والمعرفة تبيضها .

السادس : الشمس تحرق ، والمعرفة تنجى من الحرق . .

السابع : الشمس تارة تضر وتارة تنفع ، والمعرفة تنفع ولا تضر ألبتة . .

الثامن : الشمس منفعتها فى الدنيا ، والمعرفة منفعتها فى الدنيا والآخرة.

التاسع : الشمس فى السماء زينة لأهل الأرض ، والمعرفة زينة لأهل السماء .

العاشر : الشمس فى الفوق ، وهى تضىء ما تحتها ، والمعرفة فى قلب المؤمن ، وهو فى التحت ، وهى تضىء ما فوقها .

---

(١) سورة المزمل / ٦ — (٢) سورة الإسراء / ١
(٣) سورة القدر / ٣ . — (٤) سورة القصص / ٨٨ .
(٥) بل تنكسف فى بعض القلوب التى تغشاها الشهوات .

الحادى عشر : بالشمس ينكشف وجود الخلق(١) ، وبالمعرفة ينكشف وجود الخالق . والدليل عليه قول أمير المؤمنين على معين قيل له : هل رأيت ربك ؟ فقال : لا أعبد رباً لم أره .

الثانى عشر : الشمس تقع على العدو والولى ، والمعرفة ليست إلا للولى .

الثالث عشر : ولاية الشمس فى الدنيا دون الآخرة ، أما المعرفة فإنها فى الدنيا ذات بداية ، وفى الآخرة ذات ولاية .

وأيضا فإن الكوكب مصباح الخلق ، والمعرفة مصباح الحق(٢) .

وأيضا فإن الكواكب تطالع من خزانة الفلك ، والمعرفة تطلع من خزانة الملك .

وأيضا فإن الكواكب علامة ، والمعرفة كرامة .

وأيضا فإن الكواكب موضع نظر المخلوقين ، والمعرفة موضع نظر رب العالمين . قال عليه السلام : «إن الله لاينظر إلى صوركم ولاأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »(٣) .

السؤال الثالث : ما الفرق بين السراج والمعرفة ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن سراج الدنيا مشوب نوره ، بالظلمة ، وهى الدخان الذى يعلوه ، وسراج المعرفة نوره صاف ، لا ظلمة معه .

الثانى : أن سراج الدنيا يحرق نفسه لينتفع به غيره ، وسراج المعرفة يحرق الذنب ، ويروح السر ، وينور الصدر .

---

(١) هذا فى الظاهر . أما فى الحقيقة فالشمس تكشف عن وجود الخالق .

(٢) هنا تكرر أن (شعاع الكوكب ينزل إلى أسفل (وشعاع المعرفة يصعد إلى العلو (. وهو تكرار لعله من الناسخ .

(٣) أخرجه الطبرانى وأبو يعلى عن عمران بن حصين .

الثالث : أن سراج الدنيا يضمحل من نور الشمس ، وأما سراج المعرفة والتوحيد فانه يضمحل نور الشمس فى نوره .

الرابع : أن سراج الدنيا لا وفاء له ، يحرق من أوقده ، ومن أمده بالفتيلة ، كما يحرق من لم يوقده ولم يمده بالفتيلة ، وسراج المعرفة ذو وفاء، لا يحرق صاحبه ألبتة ، بل ينجيه من الحرق ، فشتان ما بين السراجين .

السؤال الرابع : ما الحكمة فى تشبيه المعرفة بالمصباح ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن المصباح تضره الرياح ، والمعرفة يضرها الوسواس والشبهات .

الثانى : أن المصباح لايبقى بغير الدهن ، والمعرفة لاتبقى بغير التوفيق .

الثالث : لابد للمصباح من حافظ يتعهده ، ولابد لمصباح المعرفة من متعهد وهو فضل الله ورحمته . .

السوال الخامس : ما الحكمة فى تشبيه القلب بالزجاجة ؟

الجواب من وجوه . .

الأول : أن الذهب والفضة وإن كانا نفيسين رفيعين إلا أنهما كثيفان يوقعان الحجاب ، والزجاجة وإن كانت قليلة القيمة إلا أنها لطيفة صافية لا توقع الحجاب ، فانه يرى ظاهرها من باطنها وبالضد ، والله تعالى ذكر هذا المثل لرفع الحجاب لا لوضعه .

الثانى : أنه ليس لآنية الزجاجة خطر ، إنما الخطر لما فى الآنية ،فكذا ليس لقلبك خطر إنما ، الخطر للإيمان .

الثالث : إذا انكسرت الزجاجة لم تصلح(١) إلا بادخال النار والإذابة ، وكذا القلب إذا فسد لم يصلح إلا بادخال النار والإذابة (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجى الذين اتقوا) (٢) .

---

(١) فى ج (لم تنصلح) .

(٢) سورة مريم / ٧١ .

الرابع : أن صاحب الذهب والفضة لا يخاف كسرها ، لعلمه أن قيمتها لا تبطل بسبب الانكسار ، وأما صاحب الزجاجة فانه على حذر ووجل ، لعلمه بأنها إذا انكسرت بطلت قيمتها ، فكذلك المؤمن ينبغى أن يكون على حذر ووجل كصاحب الزجاجة ، ولا يكون على أمن كصاحب الذهب والفضة .

الخامس : شبهه بالزجاجة لأن النور من الزجاجة أحسن وأتم ضياء منه فى الذهب والفضة . والزجاجة لقلة قيمتها ، واستعدادها للانكسار والبطلان صار النور فيها أحسن ، وهو إشارة إلى قوله : أنا عند المنكسرة قلوبهم » (١) .

السؤال السادس : ما الحكمة فى تشبيه الزجاجة بالكوكب الدرى ؟

الجواب من وجوه .

الأول : أن الكوكب الدرى فيه لأهل للأرض هداية كما قال تعالى: (**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**) (٢) .ولأهل السماء زينة ، قال تعال : (**إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب**)(٣) وكذلك [قلب] المؤمن ، سبب لهداية صاحبه إلى الخيرات ، وأيضا نزهة لأهل السماء ، فانه روى أن معرفة العارف تضىء لأهل السماء كما يضىء الكوكب الدرى لأهل الأرض.

الثانى : الكوكب لا قدرة للشياطين عليه ، بل الكوكب يحرق الشياطين ، قال الله تعالى : (**وجعلناها رجوما للشياطين**) (٤) . فكذلك قلب المؤمن لا سبيل للشياطين عليه ، بل نور قلبه وإيمانه يحرق الشياطين . ولذلك قال تعالى (**إن عبادى ليس لك عليهم سلطان**) (٥) . وقال (**الذى يوسوس فى صدور الناس**) (٦) ولم يقل : فى قلوب الناس . وقال : (**إن**

---

(١) لم أعثر عليه فى مصدر معتبر إلا فى كتب الصوفية .
(٢) سورة النحل / ١٦ .
(٣) سورة الصافات / ٦ .
(٤) سورة الملك / ٥ .
(٥) سورة الحجر / ٤٢ .
(٦) سورة الناس / ٦ .

الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) (١) . فذلك التذاكر هو ظهور نور الإيمان . وقوله : (فاذا هم مبصرون) إشارة إلى احتراق وساوس الشياطين .

السؤال السابع : ما الحكمة فى أن شبه القلب بالكوكب لا بالشمش والقمر؟

الجواب من وجوه .

الأول : أن الكوكب مستتر بالنهار ويظهر بالليل ، والعارف مستور بالنهار ، فاذا أظلم الليل ظهر بالخدمة والتضرع . .

الثانى : أن الكوكب زينة السماء : والقلب زينة العارف . الثالث : أن الكواكب مصابيح السماء (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) . والقلب مصباح العارف ، قال تعالى (كمشكاة فيها مصباح) .

السؤال الثامن : هل فى تشبيه الإيمان بالسراج بشارة لأهل الإيمان ؟

الجواب من وجوه .

الأول : أن الشمس سراج استوقده الله تعالى للفناء ، ثم لا يقدر أحد على إطفائه ، والمعرفة سراج استوقده الله تعالى للبقاء ، فكيف يقدر إبليس على إطفائه ؟

الثانى : استوقد الله تعالى سراج الشمس فى السماء ، فهى تزيل للظلمة عن بيتك ، فإذا استوقد شمس المعرفة فى قلبك كيف لا تزول ظلمة المعصية عنك مع شدة القرب ؟

الثالث : من استوقد سراجا فعليه تعهده ، والله هو الموقد لسراج المعرفة ، قال الله تعالى : (كتب فى قلوبهم الإيمان)(٢) ، فلاجرم . أوجب على رحمته إمداده وتعهده ، وعواطف تعهده عاطفة حافظة ، كما قال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (٣) .

---

(١) سورة الأعراف / ٢٠١ . (٢) سورة المجادلة / ٢٢ .
(٣) سورة الحجر / ٩ .

الرابع : اللص إذا رآى السراج فى البيت مستوقدا لا يقصد ذلك البيت بالسرقة ، والله تعالى أوقد سراج المعرفة فى قلبك ، فكيف يقدر لص الشيطان من القرب منك (١) .

الخامس : المجوس أوقدوا نارا ولا يريدون إطفاءها ، والملك القدوس أوقد نار المعرفة والمحبة فى قلبك ، فكيف يرضى بإطفائها وإبطالها.

السادس : من أراد أن يستوقد سراجا إحتاج إلى سبعة أشياء : إلى زناد ، وحجر ، وحراق ، وكبريت ؛ ومسرجة ، وفتيلة ، ودهن ، والعبد إذا طلب أن يوقد[٢] سراج المعرفة فلابد من زناد الجهد (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[٣] وحجر التضرع (ادعوا ربكم تضرعا وخفية)[٤] وأما الحراق فهو إحراق النفس بمنعها من شهواتها قال تعالى : (ونهى النفس عن الهوى)[٥] والرابع كبريت الإنابة (وأنيبوا إلى ربكم)[٦]

والخامس: مسرجة الصبر (واصبروا إن الله مع الصابرين)[٧]. والسادس فتيلة الشكر (واشكروا نعمة الله عليكم)[٨] . والسابع دهن الرضاء بقضاء ربك، قال تعالى (واصبر لحكم ربك)(٩). وقال عليه السلام : « الرضا بالقضاء باب الله الأعظم(١٠)» . فهذه الحرفة متعلقة بك فى حفظ عهد العبودية وإذا وفيت بعهد العبودية فهو أولى أن يفى بعهد الربوبية كما قال تعالى : (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) (١١) . . فتحفظ هذه المعرفة فى قلبك ، وهذا الذكر فى لسانك ، واجعلهـا نورا باقيا معك فى القبر والظلمات والقيامة .

* * *

(١) قارن بما كتب المحاسبى فى باب المعرفة من (آداب النفوس) . فقد تعرض لنفور الشيطان من النور ، وحبه للخراب والظلمة .

(٢) فى ج (أن يوجد) .

(٣) سورة العنكبوت / ٦٩ .

(٤) سورة الأعراف / ٥٥ .

(٥) سورة النازعات / ٤٠ .

(٦) سورة الزمر / ٥٤ .

(٧) سورة الأنفال / ٤٦ .

(٨) سورة النحل / ١١٤ .

(٩) سورة الطور / ٤٨ .

(١٠) لم نعثر على هذا النص فيما لدينا من مصادر .

(١١) سورة البقرة / ٤٠ .

النوع الثالث :

من الأمور التى شبه الله تعالى الإيمان بها : التراب . قال الله تعالى : (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه[١]) .

ووجه المشابهة : أن التراب ذو أمانة ، من أودع فيه شيئا سلم إليه أضعافا ، قال الله تعالى : (فى كل سنبلة مائة حبة[٢]) . فكذا المؤمن إذا عمل عملا سلم إليه أضعاف ذلك العمل يوم القيامة ، قال الله تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب[٣]) .

الثانى : من خاصية الأرض أنها يطرح عليها كل قبيح ، ويخرج منها كل مليح ، فكذا أرض الإيمان ، يطرح عليها قبائح الكفر والذنوب ، ثم يخرج منها ثمرات المغفرة والرحمة والرضوان (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات[٤]) .

الثالث : من خاصية الأرض أنها كالأم الحاضنة لك ، فهى كالمهد ، قال الله تعالى : (ألم نجعل الأرض مهادا[٥]) . وكالخزانة لك (خلق لكم ما فى الأرض جميعا[٦]) . وكالأم المشفقة عليك (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى[٧]) . فكذا الإيمان ، منه يحصل جميع منافعك فى الدنيا والعقبى .

* * *

النوع الرابع :

من الأشياء التى شبه الله تعالى بها الإيمان والقرآن : الماء . قال الله تعالى :

---

(١) سورة الأعراف / ٥٨ .
(٢) سورة البقرة / ٢٦١ .
(٣) سورة الزمر / ١٠ .
(٤) سورة الفرقان / ٧٠ ، وصدر الآية (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) .
(٥) سورة النبأ / ٦ .
(٦) سورة البقرة / ٢٩ .
(٧) سورة طه / ٥٥ .

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار إبتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الأمثال فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الحق والباطل[١]) : أى الإيمان والكفر . فالزبد الكفر ، والإيمان الماء : وفى تقرير وجه المشابهة أمور وجوه .

الأول : الماء يزيل النجاسة عن الثوب (وأنزلنا من السماء ماء طهورا[٢]) (وثيابك فطهر[٣]) . فكذلك الإيمان يزيل نجاسة الكفر والمعصية عن القلب ، قال عليه السلام : « الإسلام يجب ما قبله » . .

الثانى : أن الله تعالى سمى الماء المنزل من السماء رحمة ، فقال : (وهو الذى يرسل الرياح بشرى بين يدى رحمته[٤]) . وسمى القرآن رحمة فقال : (وهدى ورحمة للمؤمنين[٥]) . وجعل الإيمان رحمة وسببا للرحمة فقال : (كتب فى قلوبهم الإيمان[٦]) . وقال : (كتب ربكم على نفسه الرحمة[٧]) . فلا جرم شبه القرآن والإيمان بالماء لهذا السبب .

الثالث : أن الله تعالى سمى القرآن مباركا فقال : (وهذا ذكر مبارك أنزلناه[٨]) : وقال فى الماء : (ونزلنا من السماء ماء مباركا[٩]) فلا جرم شبه الإيمان وكذا القرآن بالماء لكون كل منهما مباركا .

الرابع : أن الماء شفاء للنفوس ، والقرآن شفاء للقلوب ، قال الله تعالى : (وننزل من القرآن ما هوشفاء ورحمة المؤمنين[١٠]) . فهو شفاء لقلوبهم ، ورحمة لذنوبهم :

الخامس : كما أنه تعالى هو الذى أنزل الماء من السماء ، فلا يقدر عليه أحد سواه .

---

(١) سورة الرعد / ١٧ .
(٢) الفرقان / ٤٨ .
(٣) المدثر / ٤ .
(٤) سورة الأعراف / ٥٧ .
(٥) سورة يونس / ٥٧ .
(٦) سورة المجادلة / ٢٢ .
(٧) سورة الأنعام / ٥٤ .
(٨) سورة الأنبياء / ٥٠ .
(٩) سورة ق / ٩ .
(١٠) سورة الإسراء / ٨٢ .

السادس : كما أن الله تعالى إذا أنزل المطر من السماء لم يقدر أحد على دفعه ، فكذلك لما أنزل القرآن من السماء لم يقدر أحد على دفعه ، وإدخال الباطل عليه (وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[1]) .

السابع : أن المطر لا يقدر مخلوق أن يحصى عدد قطراته ، فكذا القرآن لا يحيط أحد بكمال أسراره ، والطائف حقائقه .

الثامن : كما أن المطر ينزل من السماء قطرة قطرة ، ثم يسيل فى الأرض نهرا نهرا ، وبحراً بحراً ، فكذلك القرآن ، ينزل من السماء آية آية ، ونجما نجما ، ثم صار المجموع أنهاراً وبحاراً . وفى الخبر : إن القرآن بحر عميق لايدرك قعره .

التاسع : كما أن المطر لو نزل من السماء دفعه واحدة لا قتلع الأشجار ، وخرب الديار ، وكان الفساد فيه أكثر من الصلاح ، فكذا القرآن لو نزل جملة واحدة ، لضلت فيه الأفهام ، وتاهت فيه الأوهام ، قال الله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله[2]) .

العاشر : كما أن الله تعالى يحيى الأرض بعد موتها بالمطر ، فكذلك أحيا القلوب الميتة بالقرآن ، قال الله تعالى : (أو من كان ميتا فأحينياه[3]) .

الحادى عشر : كما أن المطر الواحد يقع على الأرض فيخرج منه الورد والريحان ، وعلى أرض أخرى فيخرج منه الشوك والسم ، فكذا القرآن ، يقع على قلب المؤمن المطيع فيخرج منه ورد العبودية ، وريحان الطاعة ، ويقع على قلب الكافر ، فيخرج منه سم الكفر ، وشوك المعصية . قال الله تعالى : (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا[4]) . .

---

(١) سورة فصلت / ٤١ ، ٤٢ .　　(٢) سورة الحشر / ٢١ .
(٣) سورة الأنعام / ١٢٢ .　　(٤) سورة البقرة / ٢٦ .

الثانى عشر : أن فى الماء النازل من السماء غنية عن جميع المياه ، فكذلك فى القرآن غنية عن جميع الكتب والعلوم .

الثالث عشر : أن الماء الكثير إذا انغمس فيه من لا يحسن السباحة هلك ، فكذلك القرآن ، إذا تكلم فيه واحد بغير علم . قال عليه السلام : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار[١] » . .

الرابع عشر : كما أن الشرب فوق الكفاية يضر ولا ينفع ، فكذلك الكلام فى القرآن فوق الفهم والفطنة يضر ولا ينفع قال عليه السلام : « أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم[٢] » . .

الخامس عشر : إذا نزل المطر زال القحط ، وظهر النبات والغذاء والفواكه ، فكذلك كان قبل نزول القرآن قحط الدين ، فلما نزل القرآن زال القحط فى الدين ، وظهرت أنواع الغذاء والفواكه للروح ، وهو بيان التوحيد والنبوة والشرائع .

السادس عشر : كما أن الماء يطفيء النار ، فكذلك الإيمان والقرآن يطفئان عن المؤمن الذى هو حامل القرآن والإيمان نار جهنم[٣] .



النوع الخامس :

من الأشياء التى شبه الله تعالى بها الإيمان : الحبل . قال الله تعالى : (**واعتصموا بحبل الله جميعا**[٤]) . ووجه المشابهة من وجوه .

الأول : أن من أراد أن يصعد من الأسفل إلى العلو ، وخاف من الانزلاق ، فإذا تمسك بحبل أمن من ذلك الخوف . فالعبد إذا أراد أن يصعد من سفل البشرية إلى عالم الجلال والكبرياء ، وخاف أن ينزلق قدم عقله ، فإذا تمسك بالقرآن أمن منه .

---

(١) أخرجه مسلم عن ابن عمر . (٢) أخرجه ابن ماجة والترمذى عن ابن مسعود .
(٣) وردت أحاديث كثيرة فى هذا . (٤) سورة آل عمران / ١٠٣ .

الثانى : أن الأعمى إذا أراد الذهاب إلى موضع فإن كان بين مكانه وبين ذلك الموضع حبل ممدود ، وتمسك بذلك الحبل ذهب فارغا من كل خوف ، فكذلك العقول البشرية كالأعمى فى سلوك سبيل التوحيد والمعرفة ، فإذا تمسكت بالقرآن أمنت من الخوف .

الثالث : أن من سقط فى البئر فطريق تخليصه أن يرسل إليه حبل ، حتى يتعلق به ويصعد ، ينجو من المهالك ، فالأرواح البشرية وقعت فى هاوية عالم لأجسام[1] ، فالملك الرحيم أرسل إليها حبل القرآن ، فمن تعلق به وصعد نجا ، ومن لم يتعلق به فى بئر الظلمات وقع وكان من الهالكين .

***

النوع السادس :

من الأشياء التى شبه الله تعالى بها الإيمان : شجرة الزيتون . قال الله تعالى : (**وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين**[2]) . وذكروا فى جه التشبية أمرين :

الأول : أنه تعالى إنما شبه الإيمان بهذه الشجرة ، لأن هذه الشجرة فى أكثر الأمور إنما تنبت فى الأمكنة المطهرة ، فكذلك المعرفة لا تستقر فى كل قلب ، بل فى القلوب المطهرة .

الثانى : أن شجرة الزيتون يتولد من ثمرتها ذلك الدهن الذى هو فى غاية الصفاء ، فكذلك قلب المؤمن يتولد منه الإيمان والمعرفة ، وهما أصفى الأنوار وأشرفها .

***

تكريم المؤمنين :

وأعلم أن الله قد وعد المؤمنين بعشر كرامات :

---

(١) يقصد : هاوية عالم الشهوات المركبة فى الأجسام .
(٢) سورة المؤمنون / ٢٠ .

الأول : المغفرة . قال الله تعالى : (**قل للذين كفرو إن ينتهوا يغفرلهم ما قد سلف**[١]) . والمعنى : إن قبلوا الإيمان ، وتركوا الكفر .

وثانيها : الأمن . قال تعالى (**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**[٢]) .

وثالثها الهداية . قال تعالى : (**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم**[٣]) .

ورابعها : الزيادة . قال تعالى : (**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**[٤]) .

وخامسها : الفلاح . قال تعالى : (**قد أفلح المؤمنون**[٥]) .

وسادسها : الثبات . قال الله تعالى : (**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت**[٦]) .

السابع : الشفاعة : قال تعالى : (**يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا**[٧]) . يعنى قول لا إله إلا الله .

وثامنها : إصلاح الأعمال . قال الله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته**[٨]) **إلى قوله** : (**يصلح لكم أعمالكم**[٩]) .

وتاسعها : البشرى . قال تعالى : (**وأبشروا بالجنية التى كنتم توعدون**[١٠]) .

وعاشرها : كلام الله تعالى ورؤيته يوم القيامة . قال تعالى : (**سلام قولا من رب رحيم**[١١] . وقال : (**وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة**[١٢]) .

---

(١) سورة الأنفال / ٣٨ .
(٢) سورة الأنعام / ٨٢ .
(٣) سورة يونس / ٩ .
(٤) سورة يونس / ٢٦ .
(٥) سورة المؤمنون / ١ .
(٦) سورة ابراهيم / ٢٧ .
(٧) سورة طه / ١٠٩ .
(٨) سورة الأحزاب / ٧٠
(٩) سورة الأحزاب / ٧١ .
(١٠) سورة فصلت / ٣٠ .
(١١) سورة يونس / ٥٨ .
(١٢) سورة الغاشية / ٢ ، ٣ .

الفصل الخامس
فى شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إله إلا الله وهى وجوده

المبحث الأول :

زعم جماعة من النحويين أن هذا الكلام فيه حذف وإضمار . ثم ذكروا فيه وجهين : أحدهما : التقدير : لا إله لنا إلا الله . والثانى : لا إله فى الوجود إلا الله . . وأعلم أن هذا الكلام غير سديد لوجوه :

أما الأول فلأنه لو كان التقدير : لا إله لنا إلا الله ، لم يكن هذا الكلام يفيد التوحيد الحق ، إذ يحتمل أن يقال : هب أنه لا إله لنا إلا الله، فلم قلتم : إنه لا إله لجميع المحدثات والممكنات إلا الله ؟ ولهذا السبب فإنه تعالى لما قال : (**وإلهكم إله واحد**) قال بعده : (**لا إله إلا هو الرحمن الرحيم**[1]) . لأنه لما قال : (وإلهكم إله واحد) . بقى للسائل أن يسأل ويقول : هب أن إلهنا واحد ، فلم قلتم إن إله الكل واحد ؟ فلأجل إزالة هذا السؤال قال تعالى بعده : (لا إله إلا هو) . ولو كان المراد من قوله : لا إله إلا هو : أنه لا إله لنا إلا هو كان هذا تكرارا محضا .

وأما الثانى : فهو قولهم : التقدير : لا إله فى الوجود إلا الله . فنقول : وأى حامل يحملكم على التزام هذا الإضمار ؟ بل نقول : حمل هذا الكلام على ظاهره أولى من ذلك الإضمار الذى ذكرتم . وذلك لأننا لو ألزمنا ذلك الإضمار كان معناه : لا إله فى الوجود إلا هو ، فكان هذا نفيا لوجود إلا له[2] . أما لو أجرينا الكلام على ظاهره كان هذا نفيا لماهية إلا له الثانى.

---

(١) سورة البقرة / ١٦٣ .

(٢) والذى أفاد نفى الإله كلمة (الوجود) : فكأن النفى مسلط على الوجود كله ، فوجود الإله منفى من الكون .

ومعلوم أن نفى الماهية أولى وأقوى من إثبات التوحيد فى نفى الوجود ، فثبت أن إجراء الكلام على ظاهره أولى .

فإن قيل : إن نفى الماهية غير معقول ، فإنك إذا قلت : السواد ليس بسواد ، كنت قد حكمت بأن السواد انقلب إلى نقيضه ، وصيرورة الشىء عين نقيضه غير معقول . أما إذا قلت : السواد غير موجود كان هذا كلاما معقولا ، فلهذا السبب أضمرنا فيه هذا الإضمار .

فالجواب : أن قولكم نفى الماهية غير معقول باطل[1] . فإنك إذا قلت : السواد ليس بموجود فقد نفيت الوجود ، لكن الوجود من حيث هو وجود ماهية ، فإذن نفيت الماهية المسماة بالوجود ، وإذا كان كذلك صار نفى الماهية أمرا معقولا ، وإذا عقل ذلك فلم لا يجوز إجراء هذه الكلمة على ظاهرها ، فإنك إذا قلت : السواد ليس بموجود فإنك مانفيت الماهية ، وما نفيت الوجود أيضا ، وإنما نفيت موصوفية الماهية بالوجود ، فنقول : موصوفية الماهية بالوجود ، هل هى أمر مغاير للماهية وللوجود أم لا . فإن كانت مغايرة لهما كانت تلك المغايرة ماهية ، فكأن قولنا : السواد ليس بموجود نفيا لتلك الماهية المسماة بالموصوفية ، ويعود الكلام المذكور . وأما إن قلنا : إن موصوفية الماهية بالوجود ليست أمرا مغايرا للماهية وللوجود امتنع توجيه النفى إليها ، وإذا امتنع ذلك بقى النفى متوجها إما إلى أى ماهية ، وإما إلى الوجود ، وحتى يحصل غرضنا من أن الماهية يمكن نفيها ، وإذا كان الأمر كذلك صح قولنا : لا إله إلا الله حقا وصدقا من غير إضمار .



البحث الثانى :

قال النحويون : قولنا لا إله إلا الله ارتفع لأنه بدل من موضع لا مع الإسم . وبيانه : أنك إذا قلت : ما جاءنى رجل إلا زيد ، فزيد مرفوع بالبدلية ، لأن البدل هو الإعراض عن الأول ، والأخذ بالثانى ، فصار التقدير:

(١) فى ج (قلنا : هذا باطل) .

ما جاءنى إلا زيد . وهذا معقول ، لأنه يفيد نفى المجىء عن الكل إلا عن زيد ، وأما قوله : جاءنى القوم إلا زيد ، فههنا البدلية غير ممكنة ، لأنه يصير التقدير : جاءنى إلا زيد ، وذلك يقتضى أنه جاءه كل أحد إلا زيداً . وذلك محال ، فظهر الفرق :

* * *

البحث الثالث :

اتفق النحويون على أن محل إلا فى هذه الكلمة محل غير . والتقدير : لا إله غير الله . وهو كقول الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه   لعمر أبيك إلا الفرقدان

والمعنى : كل أخ غير الفرقدين فإنه يفارقه أخوه . قال الله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) . قالوا : التقدير : لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا . والذى يدل على صحة ما قلناه : أنه لو حملنا إلا على الاستثناء لم يكن لا إله إلا الله توحيداً محضاً ، لأنه يصير تقدير الكلام : لا إله يستثنى عنهم الله . فيكون هذا نفياً لآلهة يستثنى عنهم الله ، ولا يكون الآلهة [بحيث] يستثنى عنهم الله بل عند من يقول بدليل الخطاب يكون إثباتاً لذلك ، وهو كفر : فثبت أنه لو كانت كلمة إلا محمولة على الإستثناء لم يكن قولنا : لا إله إلا الله توحيداً محضاً . ولما اجتمعت العقلاء على أنها تفيد التوحيد المحض وجب حمل إلا على معنى غير حتى يكون معنى الكلام : لا إله غير الله .

* * *

البحث الرابع :

قال جماعة من الأصوليين : الاستثناء من النفى لا يكون اثباتا . واحتجوا عليه بوجهين :

الأول : أن الاستثناء مأخوذ من قولك : ثنيت الشىء عن جهته ، إذا صرفته عنها ، فإذا قلت : لا عالم فههنا أمران : أحدهما الحكم بهذا العدم ، والثانى نفس هذا العدم . ثم اذا قلت عقيبه الا زيد ، فهذا الاستثناء

يحتمل أن يكون عائداً الى الحكم بذلك العدم ، ويحتمل أن يكون عائداً الى نفس ذلك العدم . فإذا كان عائداً الى الحكم بالعدم ، لم يلزم تحقق الثبوت ، لأن سبب الاستثناء يزول بالحكم بالعدم ، وعند زوال الحكم بالعدم يبقى المستثنى مسكوتا عنه ، غير محكوم عليه لا بالنفى ولا بالإثبات ، وحينئذ لا يلزم الثبوت . أما ان كان تأثير الاستثناء فى صرف العدم ومنعه ، فحينئذيلزم تحقيق الثبوت ، لأنه لما أرتفع العدم وجب حصول الوجود ، ضرورة أنه لا واسطة بين النقيضين . وإذا ثبت هذا فنقول : عود الإستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من عوده إلى نفس العدم ، وهذا يدل عليه وجهان : الأول : أن الألفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية ، لا على الموجودات الخارجية ، فإنك إذا قلت العالم قديم ، فهذا يدل على كون العالم قديماً فى نفسه ، ولكن إذا قلنا : العالم حادث لزم كون العالم قديماً وحادث ، وذلك محال ، بل هذا الكلام يدل على حكمك بقدم العالم ، وإذا كانت الألفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية لا على الموجودات الخارجية كان صرف ذلك الأستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من صرفه إلى نفس ذلك العدم : والوجه الثانى فى بيان عود الأستثناد إلى الحكم بالعدم أولى من عوده إلى نفس ذلك العدم ، وذلك لأن عدم الشيء فى نفسه ووجوده لا يقبل تصرف هذا القائل ، بل القابل لتصرفه هو حكمه بذلك الوجود والعدم ، وإذا كان كذلك كان عود الاستثناء إلى الحكم أولى من عوده إلى المحكوم به .

الحجة الثانية فى بيان كون الإستثناء من النفى ليس بإثبات هو أنه جاء فى الحديث والعرف صور كثيرة للإستثناء مع أنه لا يقتضى الثبوت : قال عليه السلام : « لا نكاح إلا بولى » . و « لا صلاة إلا بطهور » ؟ ويقال فى العرف : لا عز إلا بالمال ؛ ولا مال إلا بالرجال . ومرادهم من الكل مجرد الإشتراط . أقصى ما فى الباب أن يقال : قد ورد هذا اللفظ فى صورة أخرى ، وكان المراد أن يكون المستثنى من النفى إثباتاً ، لأنا نقول : إنه لا بد وأن يكون مجازاً فى إحدى الصورتين ، إلا أنا نقول : إذا قلنا : إنه لا يقتضى أن يكون الخارج من النفى إثباتاً ، بحيث أفاد ذلك ، أحتمل أن تكون تلك الزيادة مستفادة من دليل آخر ، ولا يكون

ذلك تركاً لما دل اللفظ عليه ، فإن قلنا : إنه يقتضى أن يكون الخارج من النفى إثباتاً بحيث لا يفيد ذلك ، لزمنا ترك العمل بما يكون اللفظ دليلا عليه ، ومعلوم أن الأول أولى ، لأن إثبات الأمر الزائد بدليل زائد ليس فيه مخالفة الدليل ، أما ترك ما دليل عليه يكون مخالف لدليل فثبت بما ذكرنا أن الإستثناء من النفى لا يكون إثباتاً . فإذا ثبت هذا كان قولنا لا إله إلا الله تصريحاً بنفى سائر الآلهة ، ولا يكون إعترافاً بوجود الله . وإذا كان كذلك لم يكن مجرد هذا القول كافياً فى صحة الإيمان .

وها هنا إشكال آخر ، وهو أننا قد دللنا على أن إلا بمعنى غير فى هذا الموضوع ، وإذا كان كذلك كان قولنا لا إله إلا الله معناه : لا إله غير الله . فيصير المعنى نفى إله يغاير الله ، ولا يلزم من نفى ما يغاير الشىء إثبات هذا . وحينئذ يعود الإشكال .

والجواب من وجهين : الأول أن إثبات الإله سبحانه كان متفقاً عليه بين سائر العقلاء بدليل قوله : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ه فكان ذلك مفروغاً عنه ، متفقاً عليه ، إلا أنهم كانوا يثبتون الشركاء والأنداد ؛ فكان المقصود من هذه الكلمة نفى الأضرار والأنداد ، فأما القول بإثبات الإله للعالم فذلك من لوازم العقول . . الثانى : إذا سلمنا أن هذه الكلمة كما دلت على نفى سائر الآلهة دلت على إثبات إلهية الله تعالى ، إلا أنا نقول : هذه الدلالة تكون حاصلة بوضع الشرع لا بمفهوم أصل اللغة . فهذا تمام القول فى هذا المقام .

* * *

البحث الخامس :

أعلم أنه يجوز أن يقال : لا رجل فى الدار ، وأن يقال : لا رجل إلا فى الدار . أما على الوجه الأول فإنه يوجب نفى الرجال بالكلية ، والدليل عليه أن قولنا : لا رجل يقتضى نفى ماهية الرجل ، ونفى الماهية يقتضى إنتفاء كل أفراد الماهية ، لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبتت الماهية ضرورة أنه متى ثبت فرد من أفراد الماهية فقد ثبتت الماهية لا محالة .

وأما قولنا إلا رجل إلا فى الدار فهو نقيض قولنا لا رجل فى الدار ولكن قولنا :[لا رجل] إلا فى الدار يفيد ثبوت رجل واحد ، فقولنا لا رجل فى الدار وجب أن يفيد عموم النفى ، حتى يتحقق التناقض بين القولين

والحاصل أن قولنا لا رجل أقوى فى الدلالة على عموم النفى من قولنا لا رجل ، مع أن كل واحد منهما يفيد عموم النفى ، ولأجل أن كل واحد منهما يفيد العموم قرىء (لا ريب فيه) بالقراءتين ، وكذا قوله : (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال) . ولأجل أن البناء على الفتح أقوى فى الدلالة على العموم اتفقوا عليه فى قولنا لا إله إلا الله .

* * *

البحث السادس :

من الناس من يقول : إن تصور الإثبات مقدم على تصور النفى ، بدليل أن الواحد منا يمكنه أن يتصور الإثبات وإن لم يخطر بباله معنى النفى والعدم ويمتنع عليه أن يتصور العدم والنفى إلا وقد تصور أولا الإثبات ، وذلك لأن العدم المطلق غير معقول ، بل العدم لا يعقل إلا إذا أضيف إن معين ، فيقال : عدم الدار ، وعدم الغلام ، فثبت أن تصور الإثبات أصل ومتقدم ، وتصور النفى متأخر وفرع . وإذا ثبت هذا فما السبب فى أن جعل النفى الذى هو الفرع متقدماً ، والإثبات الذى هو الأصل مؤخر؟

والجواب : أن فى تقديم النفى ههنا على الإثبات أغراضا :

الأول : أن نفى الربوبية عن غيره ثم إثباتها له آكد فى الإثبات من إثباتها له من غير نفيها عن غيره ، كما أن قول القائل : ليس فى البلد عالم غير فلان أقوى فى باب المدح من قولنا : فلان علم البلد .

الثانى : أن لكل إنسان قلباً واحداً ، والقلب الواحد لا يتسع بإشتغال شيئين دفعة واحدة ، فبقدر ما يبقى مشغولا بأحد الشيئين يبقى محروماً من الشىء الثانى ، فقولنا لا إله إلا الله ، إخراج لكل ما سوى الله عن القلب ، حتى إذا صار القلب خالياً عن كل ما سوى الله ؛ ثم خطر فيه

سلطان الله ، أشرق نوره إشراقاً تاماً ، وكمل إستيلاؤه عليه كمالا قوياً .

الثالث : أن النفى الحاصل بـ « لا » يجرى مجرى الطهارة ، والإثبات الحاصل بإلا يجرى مجرى الطهارة والصلاة ، فكما أن الطهارة مقدمة على على الصلاة ، فكذا وجب تقديم (لا إله) على قولنا (إلا الله) ، ويجرى مجرى تقديم الإستعاذة على القراءة ، فكما أن الإستعاذة مقدمة على قراءة القرآن ، فكذا هذا .

وأيضاً . إن من أراد أن يحضر الملك فى بيت وجب عليه أن يقدم تطهير ذلك البيت عن الأقذار ، فكذا هنا ، وعن هذا قال المحققون : النصف الأول من هذه الكلمة تنظيف الأسرار ، والنصف الثانى جلالة الأنوار عن حضرة الملك الجبار . والنصف الأول إنفصال ، والنصف الثانى إتصال . . والنصف الأول إشارة إلى قوله : (ففروا إلى الله) (١) والنصف الثانى إشارة إلى قوله : (قل الله ثم ذرهم) (٢) .

* * *

البحث السابع

إن للقائل أن يقول : إن من عرف أن للعالم صانعاً قادراً عالماً ، موصوفاً بجميع الصفات المعتبرة فى الإلهية ، من الصفات السلبية والثبوتية فقد عرف الله تعالى معرفة تامة ، ثم إن علمه بعدم الإله الثانى لايزيده علماً بحقيقة ذات الإله وصفاته لأن عدم الإله الثانى ليس عبارة عن وجود الإله الأول ، ولا [وجود] صفات من صفاته ، ثم إنا أجمعنا على أن علمه بذات الإله وصفاته لا يكفى فى تحقق النجاة ، بل ما لم يعلم عدم الإله الثانى لا يحصل العلم المعتبر (٣) فى النجاة ، فما السبب فى أن كانت معرفة ذات الله تعالى وصفاته غير كافية فى تحقق النجاة ، بل كان العلم بعدم الثانى معتبراً فى تحقق النجاة ؟

---

(١) سورة الذاريات / ٥٠ .
(٢) سورة الأنعام / ٩١ .
(٣) فى د (علم المعتبرة) .

والجواب : أنه بتقدير أن يكون للعالم إلهـان (١) فالعبد لا يعلم أنه عبد لهذا الإله أو عبد لذلك الإله ، أو عبد لهما معاً ، فحينئذ لا يكون جازماً بكونه مشتغلا بشكر مولاه وخالقه ، بل يجوز أن يكون عابداً لغير خالقه ، ومتى كان الأمر كذلك لم يكن جازماً فى تلك العبودية ، وتلك الطاعة ، أما إذا عرف أنه لا إله للعالم إلا إله واحد ، فحينئذ يكون جازماً ما بكونه مشتغلا بعبودية مولاه وخالقه ، فلهذا السبب لم تحصل النجاة والفوز بالدرجات إلا بمعرفة التوحيد .

❋ ❋ ❋

البحث الثامن :

أن المكلف إذا تم النظر والاستدلال فى معرفة الله تعالى ، ثم مات ولم يجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه : لا إله إلا الله ، فههنا لا شك فى أنه يموت مؤمناً ، لأنه أدى ما وجب عليه ، ولم يجد مهلة للتلفظ بهذه الـكلمة ، فأما إذا تم النظر ، والاستدلال فى معرفة الله ، ووجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه لا إله إلا الله ، ثم لم يقل ، ثم مات ، فهذا الشخص هل مات مؤمناً أم لا ؟

من الناس من قال : إنه مات كافراً ، لأن صحة الإيمان متوقفة على التلفظ بهذه الكلمة عند القدرة عليه . ومن الناس من قال : إنه مؤمن ، لأجل أنه حصل له العرفان التام ، وفاسق لأجل أنه كان مأموراً بذكر هذه الكلمة وما ذكرها . والدليل على أنه مؤمن قوله عليه السلام . « يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » (٢) . فهذا الشخص قلبه مملوء من الإيمان ، فكيف لا يخرج من النار ؟

* * *

(١) هذا التقدير لا يحصل من المؤمن أبدا . .. وإنما يحصل من المشرك . وعليه يكون تخريج هذا التعليل . ويمكن القول بأن المراد نفى آلهة الشرك الخفى كالهوى مع آلهة الشرك الجلى الظاهر .

(٢) أخرجه الطبرانى عن أبى موسى وابن أبى حاتم مرفوعا .

البحث التاسع :

من الناس من قال . تطويل المدة من كلمة (لا) من قولنا . لا إله إلا الله ، مندوب إليه مستحسن ، لأن المكلف فى زمان التحديد يستحضر فى ذهنه جميع الأضداد والأنداد وينفيها ، ثم بعد ذلك يعقب ذلك بقوله : إلا الله ، فيكون ذلك أقرب إلى الإخلاص والكمال .

ومنهم من قال . بل يترك التحديد أولى ، لأنه ربما مات فى زمان اللفظ بلا ، قبل الانتقال إلى كلمة (إلا الله) .

والذى عندى : أن المتلفظ بهذه الكلمة إن كان يتلفظ بها لينتقل من الكفر إلى الإيمان فترك التحديد أولى ، حتى يحصل الانتقال من الكفر إلى الإيمان على أسرع الوجوه . وإن كان المتلفظ بها مؤمناً ، وإنما يذكرها لتجديد هذه الكلمة ، فالتحديد أولى ، حتى يحصل فى زمان التحديد صور الأنداد والأضداد وعلى التفصيل فى الخاطر ، ثم ينفيها ، ويعقبها بقوله (إلا الله) . فيكون الإقرار بالإلهية أصفى وأكمل .

* * *

البحث العاشر :

إن الناس فى هذه الكلمة على مذاهب (١) وطبقات :

فأدناها طبقة من قالها ليحقن دمه ، ويحرز ماله ، على ما إقتضاه موجب قوله عليه السلام . « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا . لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . وهذه درجة اشترك فيها المخلصون والمنافقون . فكل من تعلق بهذه الكلمة نال من بركتها ، وأحرز حظاً من فوائدها ، فإن طلب بها الدنيا

---

(١) على هامش ج (آراء) . من نسخة ثانية .

(٢) أى : إن العبرة فى الدنيا بالظاهر ، وفى الآخر بالسرائر . وانظر (لأسرار أركان الإسلام ص ٢٥) .

نال الأمن فيها ، والسلامة من آفاتها ، وإن قصد بها الآخرة جمع بين الحظين ، وأحرز بها السادة فى الدارين (٢) .

والطبقة الثانية . الذين ضموا إلى القول باللسان الأعتقاد بالقلب على سبيل التقليد . وأعلم أن الإعتقاد لا يكون علماً ، لأن العقد ضد الإنحلال والإنشراح . والعلم عبارة عن انشراح الصدر : قال تعالى . (أفمن شرح الله صدره للإسلام) . فثبت أن صاحب التقليد لا يكون عالماً ولا عارفاً ، وهل يكون مسلماً ؟ فيه الخلاف المشهور بين الأئمة ، والله أعلم .

الطبقة الثالثة . الذين ضموا الى الاعتقاد بالقلب معرفة الدلائل الإقناعية القوية لذلك الإعتقاد ، الا أن تلك الدلائل لا تكون برهانية يقينية ، بل اقناعية ظنية .

الطبقة الرابعة . الذين سلموا وأثبتوا تلك العقائد بالدلائل القطعية ، والبراهين اليقينية ، الا أنهم لا يكونون من أرباب المشاهدات والمكاشفات ولا من أصحاب مطالعة الآيات .

ثم أعلم أن الإقرار باللسان درجة واحدة ، وأما الإعتقاد بالقلب فله درجات مختلفة بحسب قوة الإعتقاد وضعفه ، ودوامه وعدم دوامه ، وكثرة تلك الإعتقادات وقلتها ، فإن المقلد ربما كان مقلداً فى مجرد أن الله تعالى واحد ، وربما زاد عليه وكان مقلداً فى ذلك وفى أن صانع العالم قادر عالم .

واعلم أنه كلما كان وقوف الإنسان على هذه المطالب أكثر ؛ كان تشويش أمر التقليد عليه أكثر ، وذلك لأن الطالب إذا حصل له شعور بهذه المطالب ، وحصل له وقوف على هذه المباحث مال إلى العلم ؛ وترك التقليد ، فيعسر عليه التقليد ، أما المرتبة الثالثة ، وهى مرتبة تقوية الاعتقاد بالدلائل الإقناعية ، فمراتب الخلق فيها متفاوتة غير مضبوطة ، وأما المرتبة الرابعة وهى : الترقى من الدلائل الإقناعية إلى البراهين القطعية فالأشخاص الذين يكونون واصلين إلى هذه الدرجة يكونون فى غاية القلة ، ونهاية الندرة ، لأن ذلك يتوقف على معرفة شرائط البراهين ، واستعمالها فى المطالب

وذلك فى غاية العزة : وأما المرتبة الخامسة ، وهى [مرتبة] أهل المشاهدات والمكاشفات فنسبتهم إلى أصحاب البراهين القطعية كنسبة أصحاب القطعية إلى عوام الخلق .

واعلم أن عالم المكاشفات لا نهاية له : لأنه عبارة عن سفر العقل فى مقامات الجلال الإلهى ، ومدارج عظمته ، ومنازل كبريائه وقدسه ، وإذا كان لا نهاية لهذه المقامات ، فكذلك لا نهاية للسفر فى تلك المقامات .

واعلم أن الإنسان إذا انكشف له أسرار لا إله إلا الله ، أقبل على الله ، وأخلص فى عبارته ، ولم يلتفت إلى أحد سواه ، فلا يرجو غيره ، ولا يخاف سواه ، ولا يرى النفع والضر إلا منه ، فانقطع بالكلية عمن دونه ، وتبرأ من الشرك الباطن ، كما تبرأ من الشرك الظاهر(١) ، وذلك كله موجب كلمة التوحيد .

ولهذا السبب لما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : [فاعلم أنه لا إله إلا الله) . قال بعده : (واستغفر لذنبك) والمعنى والله أعلم : أن الأمر الاستغفار لتقصير وقع فى موجب كلمة لا إله إلا الله : إما لغفله تحول دونه : أو لعارض شغل عنه ، وهو معنى قوله عليه السلام : « إنه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة(٢) » . وقد روى « مائة مرة » . وفى الحديث وجوه :

الأول : أن المراد بالغين : ما يغشى قلبه من غفلة ، أو يعرض من فترة(٣) ، بحكم الطبع البشرى فكان عند ذلك يفزع الى الاستغفار .

الثانى : أنه كان عليه السلام أبدا فى الترقى ، فإذا انتقل إلى درجة

---

(١) فى ج (كما قد تبرأ) .

(١) أخرجه أبو يعلى والترمذى عن أبى هريرة .

(٢) ليست الغفلة المحمدية كالغفلة من العامة ، بل هى لحظات خاطفة تقتضيها البشرية الرفيعة من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

أعلى من الدرجة المتنقل عنها كان يستحقرها فى العبودية ، فكان يستغفر الله منها .

الثالث : أنه ربما لاح له شىء من تجلى عالم الغيب فيستعظم تلك الدرجة ، ويستبهج بها ، ثم يصير تعاظمه لها وابتهاجه بها ، شاغلا عن الاستغراق فى المبتهج به ، فكان يستغفر الله من ذلك .

الرابع : أن كل ما لاح له من عالم الغيب كان يعلم أن الذى لاح له إنما لاح له بقدر قوته وطاقته ، وكان يعلم أن قدر عقله وطاقته بالنسبة إلى جلال الله وعلو كبريائه كالعدم ، فحينئذ يعلم أن الذى لاح له من كمال الغيب بالنسبة إلى مالم يلح له كالعدم بالنسبة إلى الوجود ، فكان يستغفر الله من أن يصفه بما يصل إليه قلبه وعقله وفكره وذكره وخاطره .

الفصل السادس
فى فضل المؤمن

اعلم أن الله سمى المؤمنين ثالث نفسه فى عشرة مواضع(١) فى المراقبة ، والولاية ، والموالاة ، والصلاة ، والعزة ، والطاعة ، والمشاقة ، والأذى ، والالتجاء ، والشهادة .

* * *

المقام الأول فى المراقبة :

ويدل عليه تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)(٢) هدد المذنبين برؤية المؤمنين اعمالهم ، كما هددهم برؤية نفسه [ورؤية رسوله] وفيه لطائف :

الأولى : روى أن عمر رضى الله عنه خرج ليلة ، فسمع امرأة تقول لابنتها : ياابنتاه ، قومى فامزجى اللبن بالماء . فقالت ابنتها : أوليس قد نهانا عن ذلك أمير المؤمنين ؟ قالت : لا يرانا أمير المؤمنين . قالت : أ فلا يرانا رب العالمين؟ فلما سمع عمر ذلك خطبها فى الغد لابنه ، فكان عمر بن عبد العزيز من خير حفدتها .

الثانية : امرأة شاطرة كانت بمكة ، قالت : لا أبرح حتى أفتن طاووس اليمانى(٣)، وكان رجلا جميلا فعرضت نفسها عليه مرارا حتى ظنت أنها تعجبه ، فقال طاووس : احضرى الليلة ، فجاء بها إلى المقام فقال لها : اضطجعى هنا . فقالت : سبحان الله ، ألا يرانا الناس ؟ فقال طاووس : أليس يرانا الله فى كل مكان ؟ فتابت .

---

(١) على هامش د (عشر أشياء) من نسخة ثانية .

(٢) سورة التوبة / ١٠٥ .

(٣) طاوس إمام أهل زمانه من تلاميذ ابن عباس وكان مولى . توفى عام ٤٠ .

الثالثة : قال أبو عبد الرحمن العتبي : خرجت ليلة فإذا أنا بجارية جميلة ، فأردتها ، فقالت : ويلك ، أمالك من زاخر من عقل إن لم يكن لك ناه من الدين ؟ فقلت لها : لا يرانا إلا الكواكب . فقالت : وأين مكوكبها ؟

الرابعة : قال حاتم الأصم : راع نفسك فى ثلاثة أوقات : إذا عملت بالجوارح فاذكر نظر الله إليك ، وإذا قلت بلسانك فاذكر سمع الله لك ، واذا كنت ساكتا فاذكر علم الله فيك ، لأنه قال : (إنى معكما أسمع وأرى) .

الخامسة : ثلاثة نفر حضروا عند بعض الزهاد ، وقالوا : أوصنا. فقال لواحد : ألست تقول : إنه عالم ؟ فقال : بلى . قال : إياك أن يعلم منك شيئاً فيفضحك به غدا . وقال للثانى : أليس هو بصير ؟ قال بلى . قال : إياك أن يراك على عمل تستحيي منه يوم القيامة . وقال للثالث : أليس هو سميع ؟ قال : بلى . قال : احذر أن يسمع منك شيئا يردك عن باب رحمته بسببه .

السادسة : قال سفيان : من وجد من نفسه ثلاثة أشياء فليحكم عليها بالسعادة : الهيبة للعزيز الجبار ، والحرمة للنبى المختار ، والحياء من الأبرار والأخيار .

* * *

المقام الثانى : الولاية :

فانه تعالى جعل المؤمنين ثالث نفسه فقال : **(إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا)** [٣] . قيل : نزلت فى عبد الله بن سلام حين شكا من

---

(١) أبو عبد الرحمن العيني لم نعثر على ترجمته .
(٢) حاتم الأصم عابد زاهد مجاب الدعوة مات عام ٢٣٠ .
(٣) سورة المائدة / ٥٥ .

عداوة اليهود له بعد إسلامه ، فنزلت . وقال محمد بن إسحاق . نزلت فى عبادة بن الصامت ، قال : يارسول الله ، تبرأت من حلف اليهود ، وتوليت الله ورسوله والمؤمنين عامة ، وفيه نكت :

الأولى : أن يوسف عليه السلام قال (**أنت وليي في الدنيا والآخرة**)[١] فوجد الملك والعز بسبب ذلك القول الذى هو قائله ، وههنا قال الله تعالى للمؤمنين : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) . فأولى أن يرجو المؤمنون بذلك الجنة والمغفرة .

الثانية : قوله : (إنما وليكم الله) . يعنى حافظكم وناصركم (ورسوله والمؤمنون) . ثم قال عليه السلام : « المرء مع من أحب » . ثم إن كل مسلم يحب الله ، فوجب بحكم ذلك الخبر أن يكون المسلم أبداً مع حفظ الله لا يفارقه ، لسبب أنه أحب الله ، فكيف يفارقه حفظ الله مع أن الله وليه وحافظه وناصره ؟

الثالثة : هذه الآية دلت على أن الصحابة يحبوننا ، لأن الله تعالى جعل المؤمنين أولياءنا ، وهو قوله (**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة**)[٢] . ثم أكد ذلك بقوله : (**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**)[٣] . ثم أمرنا أن نحب الصحابة بدليل قوله(**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعدالله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار**)[٤] فثبت بمجموع هاتين الآيتين حصول المحبة بيننا وبين الصحابة ، والحبيب لا يرضى بعذاب حبيبه ، قيل ذلك على أن جمهور الصحابة والتابعين وسلف المؤمنين يكونون شفعاء ذنوب المؤمنين .

* * *

---

(١) سورة يوسف / ١٠١ (٢) سورة المائدة / ٥٥

(٣) سورة التوبة / ٧١ .

(٤) سورة التوبة / ١٠٠ .والدليل هنا على حب الصحابة هو اتباعهم بإحسان . والنص الأوضح قوله تعالى فى سورة الحشر / ١٠ (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) .

المقام الثالث : الموالاة :

قوله تعالى : (**فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين**) (١) :
وههنا نكت :

الأولى : حكم أن مولى المؤمنين هو : الله ، وجبريل ، وصالح المؤمنين . ثم أسقط شركة جبريل والمؤمنين فقال : (**واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير**) (٢) . وقال فى حق الكافرين : (**مأواكم النار هى مولاكم**(٣) . ثم قال : (**لبئس المولى ولبئس المصير**)(٤) فمن كان الله مولاه فلا يذل ولا يخزى ، ومن كان المؤمنون مولاه فلا يضيع ولا يشقى . قال الكفار لعمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم أحد : لنا عزى ولا عزى لكم . فقال عمر رضى الله عنه : « لنا مولى ولا مولى لكم » . فنزل على وفق قوله : (**ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم**) (٥) .

الثانية : أن الله تعالى سمى النار مولى الكافرين فقال : (**النار هى مولاكم**) ، وإنما سمى النار مولاهم لأنها لا تترك إعانتهم .

الثالثة : قال بعضهم : من كان ربه مولاه لا يعذب ، ومن كان ناصره مولاه لا يغلب ، ومن كان هاديه مولاه لا يضل ، ومن كان ربه مغنيه لا يشقى ، ومن كان ربه مولاه لا يضيع ولا يحتاج إلى أحد .

* * *

المقام الرابع : الصلاة :

قال الله تعالى : (**إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا**

---

(١) سورة التحريم / ٤ . (٢) سورة الحج / ٧٨ .
(٣) سورة الحديد / ٢٥
(٤) سورة الحديد / ١٥ وفى الأصول (ولبئس العشير) وليست هى المقصودة .
(٥) سورة محمد / ١١ .

صلوا عليه وسلموا تسليما)[1] . فجعل المؤمنين ثالث نفسه فى الصلاة على الرسول عليه السلام . وههنا نكت :

الأولى : فى الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام : « هنئونى » .« هنئونى » فقالوا : هنيئا لك يا رسول الله فما حظنا ؟ فنزل قوله تعالى : (هو الذى يصلى عليكم وملائكته)[2] . والإشارة : أنه صلى على الرسول عليه السلام فى الدنيا ، فما ترك المذنبين حتى صلى الله أيضا عليهم ، فيوم القيامة كيف يترك المذنبين محرومين من المغفرة .

الثانية : الصلاة من الله تعالى على ثلاثة أوجه : عامة ، وخاصة ،وخاصة الخاصة ، فالعامة قوله : (هو الذى يصلى عليكم) ؛ والخاصة قوله : (أولئك عليهم صلوات من ربهم)(٣) . وخاصة الخاصة قوله : (إن الله وملائكته يصلون على النبى) .

الثالثة : جعل الله أهل بيت النبى عليه السلام مساوين له فى خمسة أشياء : فى المحبة ، قال تعالى : (فاتبعونى يحببكم الله)(٤) . وقال لأهل بيته : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى)[5]. والثانى : فى تحريم الصدقة . قال عليه السلام : « حرمت الصدقة على وعلى آل بيتى » . والثالث فى الطهارة قال الله تعالى : (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى)(٦) . وقال لأهل بيته : (ويطهركم تطهيرا) (٧) . الرابع : السلام . قال : « السلام عليك أيها النبى » . وقال فى أهل بيته : (سلام على آل ياسين) (٨) فى الصلاة على الرسول وعلى آله كما فى آخر التشهد .

* * *

(١) سورة الأحزاب / ٥٦ .
(٢) سورة الأحزاب / ٤٣ .
(٣) سورة البقرة / ١٥٧ .
(٤) سورة آل عمران / ٣١ .
(٥) سورة الشورى / ٢٣ .
(٦) سورة طه / ٢ ، ٣ .
(٧) سورة الأحزاب / ٣٣ .
(٨) سورة الصافات / ٣٠ .

المقام الخامس : العزة :

قال الله تعالى : **(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)**[١]. وههنا نكت :

الأولى : عزة الله عزة الربوبية ، وعزة الرسول عزة النبوة ، وعزة المؤمنين عزة التلفظ بكلمة لا إله إلا الله ، ثم كما أن عزة الله وعزة رسوله لايقبلان الذل ، فكذلك عزه المؤمنين لاتقبل الذل .

الثانية : لله عزة الإنشاء والتكوين ، قال الله تعالى : **(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)**[٢]. وللرسول عزة الدنيا حين أشار للقمر فانشق ببركة دعائه ، وللمؤمنين عزة الإيمان والشهادة . ثم إن الأشياء تكونت عند قوله : (كن) ، والقمر انشق عند دعاء الرسول ، فنرجو أن يحصل الغفران والرحمة للمؤمنين عند كلمة الشهادة .

الثالثة : عز المؤمن فى أن قيده المعرفة ، وصيده الجنة ، وعبده الرؤية ، فإذا كان العبد المؤمن رب كاف ، وكتاب شاف ، ورسول واف ، اسمه إسم الله[٣] ، ولسانة شاهد الله ، ونفسه طالبته مرضاة الله ، وقلبه محل نظر الله ، وسراجه معرفة الله ، وشهادته محبة الله ، وبصيرته مشتاقة إلى رؤية الله فحقيق أن يكون عزة متصلا بعزة الله .

الرابعة : لله العزة سواء أوجد أو أعدم ، وللرسول بالولاية سواء بلغ أو سكت ، فكذلك المؤمن له العزة سواء أطاع أو عصى .

الخامسه : لله العزة بالولاية ، لقولة : **(إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين)**[٤] . وللرسول بالولاية أيضاً لقوله : **(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)**[٥]. وللمؤمنين العزة أيضاً بالولاية لقوله : **(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)**[٦].

---

(١) سورة المنافقون / ٨ . (٢) سورة يس / ٨٢
(٣) لقوله تعالى : حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) فوصفه بصفة سبحانه وتعالى.
(٤) سورة الأعراف / ١٩٦ . (٥) سورة الأحزاب / ٦ .
(٦) سورة التوبة / ٧١ .

السادسة : لله العزة بالعلو والعظمة ، لقوله : (**وهو العلي العظيم**[١]). وللرسول بالرفعة ، لقوله : (**ورفعنا لك ذكرك**[٢]) وللمؤمنين بالقبول والرحمة ، لقوله : (**إن الله يغفر الذنوب جميعا**[٣]) .

السابعة : لله عزة المعبودية ، لقوله : (**وأنا ربكم فاعبدون**[٤]) . وللرسول عزة المتبوعية ، لقوله (**واتبعوه لعلكم تهتدون**[٥]) . وللمؤمنين عزة العبودية ، لقوله : (**ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**[٦]) .

الثامنة : لله عز الاستغناء ، (**والله الغنى وأنتم الفقراء**[٧]) . وللرسول عز الإغناء ، (**ووجدك عائلا فأغنى**[٨]) . وللمؤمنين عز الإغناء (**وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته**[٩]) .

التاسعة : قال على رضى الله عنه : من أراد عزاً بغير ذل ، وهيبة بغير سلطان ، وغنى بغير مال ، وحسبا بغير نسب ، فليخرج نفسه من ذل المعصية إلى عز الطاعة .

العاشرة : قال هارون الرشيد لمنصور بن عمار[١٠] : من أعقل الناس ، وأجهلهم ، وأغناهم ، وأعزهم ؟ فقال : أعقلهم محسن خائف ، وأجهلهم مسيء آمن ، وأغناهم القانع ، وأعزهم الأتقياء .

* * *

المقام السادس : الطاعة :

قال الله تعالى (**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**) :
وههنا نكت :

---

(١) سورة البقرة / ٢٥٥ .
(٢) سورة الانشراح / ٤ .
(٣) سورة الزمر / ٥٣ .
(٤) سورة الأنبياء / ٩٢ .
(٥) سورة الأعراف / ١٥٨ .
(٦) سور الزمرة / ٥٣ .
(٧) سورة محمد / ٣٨
(٨) سورة الضحى / ٨
(٩) سورة النساء / ١٣٠ .
(١٠) منصور بن عمار .

الأولى : فى الخبر : مارآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ، ومارآه المسلمون قبيحا فهو عند الله قبيح ، وقال : « لا تجتمع أمتى على ضلالة[١] ». وقال عليه السلام : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ[٢] » . وقال : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر[٣] » . وكل ذلك يدل على أنه كما يجب طاعة الله وطاعة الرسول ، فكذلك يجب طاعة أولى الأمر من المؤمنين .

الثانية : قيل : بقاء الدنيا بسيوف الأمر أو لسان العلماء ، فعليك بطاعتهما إلا فى معصية الله .



المقام السابع : المشاقة :

قال الله تعالى : (**ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين**[٤]) لآية . وهنا نكت .

الأولى : لله بحور عظيمة يهلك العبد فيها إن لم يكن له معتصم يتمسك به ، فجعل حبل التوحيد سببا للنجاة من البدعة ، لقوله : (**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**[٥]) . وحبل الإجماع سببا للنجاة من الفتن ، لقوله تعالى : (**ويتبع غير سبيل المؤمنين**[٦]) . ثم قال : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) .

الثانية : قال عليه السلام : « سبع من الهدى ، وفيهن الجماعة ، من خرج منهن فقد خرج من الجماعة : لا تشهدوا على أهل قبلتكم بكفر ولا بشرك ، واتركوا سرائرهم إلى الله ، وصلوا على من مات من أهل القبلة . وصلوا الصلوات الخمس فى الجماعة خلف كل بروفاجر . وجاهدوا مع كل خليفة . ولا تخرجوا على أئمتكم بالسيف . وادعوا لهم بالصلاح ولا تدعو عليهم . وجانبوا الأهواء كلها ، فإن أولها وآخرها باطل[٧] » .

---

(١) سورة النساء / ٥٩ .
(٢) أخرجه أبو داود عن أبى موسى .
(٣) أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود .
(٤) أخرجه الشيخان عن أنس .
(٥) سورة النساء / ١١٥ .
(٦) سورة آل عمران / ١٠٣
(٧) سورة النساء / ١١٥ .

الثالثة : سئل واحد عن القلب السليم فقال : هو الذى دينه بلاشك ، ومذهبه بلاهوى ، وعمله بلا رياء ، وبدنه بلاخصم .

* * *

المقام الثامن : فى الأذى :

يدل عليه قوله تعالى : (**إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعدلهم عذابا مهينا والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا**[١]) .

أعلم أن الله تعالى نهى عن إيذاء المؤمن كما نهى عن إيذاء نفسه وإيذاء رسوله ، ثم أكد ذلك فقال : (**وقولوا للناس حسنا**[٢]) وقال : (**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**[٣]) . وقال عليه السلام : « المؤمنون قوم بررة ، هم المتحابون المتباذلون . والمنافقون قوم فجرة ، هم المتقاطعون المتدابرون[٤] » . وقال عليه السلام لعائشة رضى الله عنها : « إن الله يبغض الفاحش والمتفحش[٥] » . وفيه نكت :

الأولى : قال الله تعالى : (**ويستغفرون للذين آمنوا**[٦]) . ولم يقل : ويلعنونهم ويؤذونهم .

الثانية : قال عليه السلام : « إن الله رفيق يحب الرفقاء[٧] » .

الثالثة : عاتب الله نوحا حين دعا على قومه بالهلاك فقال : (**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**[٨]) . ولم يقل : أعداء بعض . وقال ابن عمر رضى الله عنه : «إذا لعن العبد دابة تقول الدابة : لعن الله أعصانا لربه » .

الرابعة : قال تعالى لرسوله : (**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم**[٩]) . وقال

---

(١) سورة الأحزاب / ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) سورة البقرة / ٨٣ .
(٣) سورة الفرقان / ٦٣ .
(٤) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر
(٥) أخرجه الطبرانى عن أبى هريرة .
(٦) سورة غافر / ٧
(٧) لم نعثر على هذا الحديث
(٨) سورة التوبة / ٧١
(٩) سورة آل عمران / ١٥٩ .

(خذ العفو أمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[١]) ومنى عن الهمز واللمز فقال : (ويل لكل همزة لمزة[٢]) . وقال : (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم[٣]) . وقال لموسى وقارون : (فقولا له قولا لينا[٤]) ؛ وقال تعالى : (فقل هل لك إلى أن تزكى[٥]) ؛

* * *

المقام التاسع : الالتجاء :

قال الله تعالى : (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة[٦]) . فمدح المؤمنين على الجهاد وعلى التولى فى ذلك بالمؤمنين ، لأن المنافقين كانوا يتولون اليهود ، ويتخذونهم وليجة وبطانة ، فعليك أن تتولى الله ورسوله والمؤمنين وليجة وبطانة ؛ وفيه نكت :

الأولى : أنه مدح إبرهيم حيث تبرأ من أبيه وشكى عن حاطب بن أبى بلتقه حيث كابت الكفار فقال : (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أوليا[٧]) ؛ وقال : (لا تجدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون[٨]) .

فسمى من يتولى الله ورسوله حزب الله ، ثم قال : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون[٩]) ؛

الثانية : قال الواسطى[١٠] : علامة المؤمن أربعة : لا يشكو من

---

(١) سورة الأعراف / ١١٩ .
(٢) سورة الهمزة / ١
(٣) سورة القلم / ١١ .
(٤) سورة طه / ٤٤ .
(٥) سورة النازعات / ١٨
(٦) سورة التوبة / ١٦ .
(٧) سورة الممتحنة / ١ .
(٨) سورة المجادلة / ٢٢ .
(٩) سورة يونس / ٦٢ .
(١٠) الواسطى أبو بكر .

المصائب ، ولا يتخذ عمله رياء ، ويحتمل أذى خلقه ولايكافئهم ، ويدارى عباده على تفاوت أخلاقهم ؟

* * *

المقام العاشر فى الشهادة على التوحيد :

السؤال الأول : هو أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ومن شهد لنفسه فإن تلك الشهادة لا تقبل فى الفقه .

والجواب من وجوه .

الأول : أن هذا فى الظاهر شهادة ، وفى المعنى إقرار ، وإقرار المقر[١] على نفسه مقبول . وإنما قلنا : إن هذا إقرار ، لأنه لما ادعى الوحدانية فى الألوهية فقد أقر بأن الخلق كلهم عبيده ، ورزق العبيد على المولى لازم ، فكأنه تعالى أقر على نفسه للخلق كلهم بالرزق والحفظ والنصرة . ألا ترى أنه قال : (**وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها**[٢]) .

الثانى : أن الشهادة عبارة عن قول يدل على شىء دلالة ظاهرة ، ثم ذلك القول لايراد لكونه قولا ، بل لكونه دالا على ذلك المطلوب . فلا جرم كل فعل قام مقام القول فى ذلك التعريف كان شهادة . ثم إن القول الدال لو كانت دلالته قطعية غير محتملة كان أولى بأن يكون شهادة ؟ وإذا ثبت ذلك فجميع المخلوقات[٣] دالة على وحدانية الله تعالى وإلهيته دلالة قطعية عقلية ، فكانت أولى بأن تكون شهادة ، فإذن شهادة الله على التوحيد لأجل أنه خلق الدلائل الدالة على الوحدانية قطعا ، وأما شهادة الملائكة وأولى العلم فمعناها شهادة الإقرار والاعتراف ، فكانت شهادة الله على ذلك أقوى .

---

(١) على هامش د (وإقرار المرء) من نسخة ثانية .

(٢) سورة هود / ٦

(٣) فى ج (فجميع المخلوقات لله تعالى كانت دالة) .

الثالث : وهو أن كل مسألة يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم بصحتها فإنه يمكن إثباتها بالدلائل السمعية . ومسألة الوحدانية كذلك ، فلاجرم ذكر العلماء أنه يمكن إثبات أن الإله واحد بالدلائل السمعية (١) ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، كان المقصود من هذه الشهادة أن يستدل بها على وحدانية الله تعالى .

السؤال الثانى : أنه تعالى نهى العباد أن يمدحوا أنفسهم ، فقال : (فلا تزكوا أنفسكم) (٢) ثم مدح نفسه ، وأثنى على نفسه ، فما السبب ؟

والجواب من وجوه :

الأول : وهو أنه إذا حصل للواحد منا نوع فضيلة فذلك فضل الله وكرمه ، والمستحق للثناء هو الله ؛ حيث أعطى تلك الفضيلة ، فلا جرم يقبح من الواحد منا أن يثنى على نفسه . أما الحق سبحانه فإنه قد حصلت له صفات الكمال ، ونعوت الجلال على وجه يمتنع زواله وتغييره ، فظهر الفرق .

الثانى من الفرق : أن ما فينا من الخصال الممدوحة لاينفك عن أضدادها فإن علمنا مشوب بالجهل ، وقدرتنا مشوبه بالضعف ، وملكنا لغرض الهلاك (٣) ، وبقاءنا لغرض الفناء ، وحياتنا لغرض الموت ؛ وأما صفات الله تعالى فإنها خالية عن أضدادها ، فإنه عالم بلا جهل ، وقادر بلا عجز وملك بلا زوال ، وبقاء بلا فناء ، وحياة بلا موت ، وعزة بلا ذل ، فظهر الفرق .

الثالث . أن الله تعالى إنما نهى عبده عن تزكية نفسه لأن العبد يقدم الدعوى على إظهار المعنى ، فأما الحق سبحانه فإنه كان أظهر المعنى قبل الدعوى ، لأنه خلقك ، وأعطاك الحياة والعقل ، وأنواع المنافع ، فإظهار الدعوى بعد إقامة البرهان على المعنى يكون مستحسناً ، بخلاف حال العبد ،

---

(١) على هامش ج (بالأدلة السمعية من نسخة ثانية) .
(٢) سورة النجم / ٣٢ .
(٣) يعنى : ما نملكه لا نملكه ليبقى ، بل ليستهلك فى أغراض المعاش .

فإن أكثر أحواله يكون بإظهار الدعوى مقدمة على إظهار المعنى(١) والله أعلم

الرابع . أن من أوله نطفة مذرة ، وآخره جنية قذرة ، وفيما بينهما حمال العذرة لا يليق به أن يمدح نفسه ، إنما يحق مدح النفسى لمن هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

الخامس : أن حب الإنسان لنفسه غالب ، فإذا شرع فى مدح النفس استولى ذلك عليه ، ثم إن ذلك يعميه ويصمه عن التنبه لما فيه من المعايب فيصير ذلك سبباً فى بقائه فى ظلمات الحماقات والجهالات ، بخلاف الحق سبحانه وتعالى ، فإنه منزه عن النقائص والآفات ، فلا يصير مدحه لنفسه سبباً لشىء من المعايب و النقائص .

السؤال الثالث :

لما شهد لنفسه بالوحدانية ، فأى حاجة مع حصول شهادته إلى شهادة الملائكة وأولى العلم ، وما الحكمة فى أنه تعالى ذكر بعد شهادة نفسه شهادة الملائكة وأولى العلم ؟

والجواب من وجهين :

الأول : روى أنه عليه السلام كان يمشى خلف جنازة ، فقال واحد : هذا الميت كان رجلا صالحا ، فقال عليه السلام : « واحد . وقال الثانى والثالث كذلك ، فقال : اثنان ، ثلاثة : فلما قال الرابع مثل ذلك قال : وجبت . فقيل : يارسول الله ، وما التى وجبت ؟ فقال : وجبت مغفرته فى كرم الله تعالى والجنة(٣) » لأن المؤمنين شهود الله تعالى على وحدانيته ، فلو لم تقبل شهادتهم هنا لصارت شهادتهم بالوحدانية باطلة غير مقبوله ،

---

(١) وحتى لو ظهر المعنى من العبد فى حالة معينة فإن مجموع حاله هو الدعوى ، ومن هنا لايصح له تزكية نفسه ، لأن الله تعالى يقول : (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) فهو وحده العليم بحال العبد ، وقد يكذب العبد على نفسه كثيراً .

(٢) فى الأصول : (فى عمى الحماقات) . واخترنا ما على هامش ج من نسخة ثانية .

(٣) كلمة « الجنة » على هامش ج من نسخة ثانية . والحدث أخرجه أحمد فى المسند عن عمر ،

وهو حكيم لا يفعل ذلك . وإذا عرفت هذا فنقول : الله تعالى لما جعل المؤمنين شهود الوحدانية ، فلو أظهر ذنبهم ومعصيتهم يوم القيامة كانت شهادتهم مردودة[١] ، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم . فلما جعلهم فى هذه الآية شهودا على وحدانية دل ذلك على أنه تعالى لا يظهر قبح فعلهم يوم القيامة ، اللهم حقق رجاءنا بكرمك .

الثانى : أنه ليس المقصود من ذكر شهادة الملائكة والمؤمنين توقيف هذا المطلوب على شهادتهم ، بل المقصود شهادة الله لهم بأنهم يوافقون الله فى كل ما وصل إليهم من نهيه وأمره وخبره ، والمقصود إظهار شرفهم فى كونهم موافقين لله فى هذه الشهادة ، لا توقيف المطلوب على شهادتهم .

السؤال الرابع :

ما الحكمة فى تكرير لا إله إلا الله فى (شهد الله) الآية ؟

والجواب من وجوه :

الأول : أن المقصود من التكرار التنبيه على أن الإنسان يجب أن يكون مواظبا على ذكر هذة الكلمة فى أكثر أوقات عمره .

الثانى : أنه لما حصلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها صار ذلك تنبيها على أنه يجب على العاقل أل يجعل هذه الكلمة مذكورة فى أول عمره وآخره ، حتى يكون فى الدنيا سعيدا ، وفى الآخرة حميدا .

الثالث : أن إحدى هاتين الشهادتين كانت قبل خلق الخلائق[٢] ، والثانية بعد خلقهم .

الرابع : أنه ذكر إحدى هاتين الشهادتين عن نفسه ، والأخرى عن خلقه[٣] .

* * *

(١) ونظيرة فى الفقه : رد شهادة الفاسق .

(٢) التى كانت قبل خلق الخلائق هى قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) .

(٣) شهادة الله عن خلقه يعنى عن أولى العلم منهم ، ومعناها : يعنى إظهار بشهادتهم له قبل أن يشهدوا .

الفصل السابع

فى الأحكام الفقهية المتفرعة

على قولنا لا إله إلا الله

اعلم أن الإيمان لابد له من أمرين : أحدهما هو : أن الأصل حصول المعرفة بالقلب ، وإليه الإشارة بقوله : (**فاعلم أنه لا إله إلا الله**[1]) . وثانيها : الإقرار باللسان وبالتوحيد ، وإليه الإشارة بقوله : (**قل هو الله أحد**) وذلك لأن قوله : (قل) أمر للمكلف بأن يقول بلسانه ما يدل على التوحيد ، ثم أكد هذه الدلالة بالسنة الغراء ، وهى قوله عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » .

والسبب فى أنه لابد من هذا القول هو أن للإيمان أحكاما ، بعضها يتعلق بالباطن ، وبعضها بالظاهر ، فما يتعلق بالباطن هو أحكام الآخرة ، وذلك متفرع عن العلم الذى هو باطن عن الخلق ، وما يتعلق بالظاهر هو أحكام الدنيا ، ولا يمكن إقامتها إلا بعد معرفتنا أنه مسلم ، ولا معرفة إلا بالقول باللسان ، فصارت المعرفة ركنا أصليا فى حق الله تعالى ، والقول ركنا شرعيا فى حق الخلق ، وإليه الإشارة بقول تعالى : (**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن**[2]) . وقال عليه السلام : « **من قال لا إله إلا الله** مخلصا دخل الجنة » . وقال تعالى : (**ولمن خاف مقام ربه جنتان**[3]) . جنة فى الوقت وهى جنة المعرفة ، وجنة فى العقبى[4] وهى جنة الآخرة .

---

(١) بل إن مايدل على اعتبار العلم القلبى أصلا هو قوله تعالى : (وقالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) ، أما العلم فقد يكون نظريا عقليا لا قلبيا .

(٢) سورة

(٣) سورة

(٤) فى الأصلين (عذا) واخترنا ما على هامش ج من نسخة ثانية .

واختلف المحققون ، فقال الأكثرون : الأولى أن يكون الذكر فى الابتداء قول : لا إله إلا الله . وفى الانتهاء الاختصار على ذكر كلمة : الله . ومنهم من واظب فى الابتداء والانتهاء على ذكر لا إله إلا الله . وحجة هؤلاء : أن عالم القلب مشحون بغير الله ، فلابد من النفى لنفى الأغيار (١) ، فإذا صار خاليا فحينئذ يوضع له منبر التوحيد ، ويجلس على سلطان المعرفة.

وأما الذين اكتفوا فى الانتهاء بكلمة (الله) فلهم فى ذلك وجوه .

الحجة الأولى : أنه نفى الغيب عدم .

الحجة الثانية : من قال : لا إله إلا الله ، فلعله حين ذكر كلمة النفى لا يجد من المهلة ما يصل فيه إلى الإثبات ، فحينئذ يبقى فى النفى غير منتقل إلى الإثبات ، وفى الجحود غير منتقل إلى الإقرار .

الحجة الثالثة : أن المواظبة على هذه الكلمة مشعرة بتعظيم الحق ، ينفى الأغيار ، إلا أن نفى الأغيار من باب الاشتغال ، والاشتغال فى الأغيار يرجع فى الحقيقة إلى شغل القلب بالأغيار ، وذلك يمنع من الاستغراق فى نور التوحيد ، فمن قال : لا إله إلا الله فهو مشتغل بغير الحق [وبالحق]. ومن قال : الله ، فهو مشتغل بالحق [وحده] . فأين أحد المقامين من الآخر .

الحجة الرابعة : أن نفى الشىء إنما يحتاج إليه عند خطور ذلك الشىء بالبال ، وخطور ذلك الشىء بالبال لا يكون إلا عند نقصان الحال ، فأما الكاملون الذين لا يخطر ببالهم وجود الشريك فقد امتنع أن يكلفوا بنفى الشريك ، بل لا يخطر ببالهم ولا يجرى فى خيالهم إلا ذكر الله ، فلاجرم يكفيهم أن يقولوا : الله .

الحجة الخامسة : قال الله تعالى : (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم

---

(١) الأغيار : كل ما هو غير الله تعالى .

يلعبون(١)) . فأمره بذكر الله ، ومنعه من الخوص معهم فى أباطيلهم ولعبهم ، والقول بالشريك(٢) من الأباطيل واللعب ، ونفيه خوض فى ذلك الكلام ، فكان الأولى الاقتصار على قولنا (الله) .

فهذا ما فى هذا المقام .

وههنا أنواع من التضرعات :

أحدها : أن نقول : إلهنا ، إن موسى عليه السلام سأل أجل الأشياء فقال : (**رب أرنى أنظر إليك**(٣)) . وسأل أقل الأشياء فقال : (**رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير**(٤) . فنحن أيضا نسألك أجل الأشياء وهى خيرات الآخرة ، وأقلها وهو خيرات الدنيا فنقول : (**ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة**(٥)) .

وثانيها : يحكى أن رجلا باع جارية ، ثم ندم ، واستحيا من المشترى أن يظهر هذه الحالة ، فكتب فى كفه حاجته ورفعها إلى السماء ، فرآى المشترى فى المنام : أن فلاناً من أحباء الله ، وقلبه معلق (٦) بهذه الجارية ، فردها عليه ، وأجرك على الله . فلما أصبح الرجل حمل الجارية إليه ، وردها عليه . فأراد البائع أن يرد الذهب ، فقال المشترى : إن لهذا الثمن ضامناً ، وهو خير منك . إلهنا ؛ إن كان ذلك البائع ندم على بيع تلك الجارية ، فنحن ندمنا على بيع الآخرة بالدنيا ، وإذا كان ذلك البائع قد استحيى من العود ، فنحن من كثرة ذنوبنا نستحيي منك ، وإذا كان ذلك البائع قد كتب على كفه شيئاً من حاجته ورفعها إلى السماء ، لجميع أعضائنا مكتوب عليها احتياجنا إلى رحمتك ، وذلنا بين يديك . . إلهنا ، كما ضمنت دين الغرماء فاقبل ديننا ، وأسقط عنا تبعات أعمالنا ، وافعل بنا ما أنت أهله ، يا من لا يشغله شأن عن شأن .

---

(١) سورة
(٢) يريد القول بالشرك من القائلين بالشريك ، لا من ذاكر (لا إله إلا الله) .
(٣) سورة
(٤) سورة
(٥) سورة
(٦) فى ج (مشتغل) .

ثالثها ، يروى أن الصديق رضى الله عنه كان يخافت فى صلاته بالليل ، ولا يرفع صوته بالقراءة وكان عمر رضى الله عنه يجهر بها ، فسأل رسول الله عليه وسلم أبا بكر عن فعله فقال : من أناجيه يسمع كلامى . وسأل عمر فقال : أوقظ الوسنان ، وأطرد الشيطان ، وأرضى الرحمن ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر برفع صوته قليلا ، وأمر عمر بخفضه قليلا » . إلهنا ، الإيمان فينا كالرسول ، والقلب مثل أبى بكر ، واللسان مثل عمر ، والقلب يخافت بالذكر كأبى بكر ، واللسان يظهر الذكر كعمر ، والإيمان يأمر القلب بالزيادة فى الذكر ، ويأمر اللسان بإخفاء الذكر ، فوفقنا لما تحب وترضى بفضلك يا أكرم الأكرمين .

فصل

روى الإمام محمد بن على الحكيم الترمذى عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نفس تموت فتشهد ألا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، يرجع ذلك إلى قلب موقن ، إلا غفر الله له[١] » . قال الشيخ : فهذه شهادة شهد بها عند الموت ، وقد ماتت نفسه من الشهوات ، ولانت نفسه المتمردة من هول الموت وذهب حرصه ، وألقى نفسه بين يدى رب العزة ، وقدرة رب العالمين ، فاستوى منه الظاهر والباطن[١] ، فلقى الله مخلصا بتلك الشهادة ، فغفر الله له بتلك الشهادة التى وافق ظاهرها باطنها .

وأما الذى يقوله أيام الصحة فقوله مع التخليط ، لأنه يشهد بهذه الشهاده وقلبه مشحون بالشهوات ، ونفسه أشرة بطرة ، فلا يستحق بذلك القول المغفرة . فهذا هو التفاوت بين ذكر الشهادة فى حالة الصحه ، وذكرها فى آخر زمان الحياة .

---

(١) نوادر الأصول للحكيم الترمذى ص ٢١٣ .

(٢) دليل ذلك من القرآن قوله تعالى : (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) .

وتمام القول فيه : أن الإنسان الذى يكون قلبه مفتونا بدنياه ، ومأسورا فى الشهوات ، يكون سكران عن الآخرة ، حيران عن الله ، لم يحصل فيه اليقين ألبتة(١) ، لأن قلبه مملوء بالميل إلى غير الله ، فلا يحصل فيه الميل إلى الله . أما إذا حصل فى القلب اليقين بأن كان الأمر بخلاف ذلك : وذلك لأن اليقين سمى يقينا لاستقراره فى القلب ، وهو النور . يقال : يقن الماء فى الحفرة ، إذا استقر فيها . وإذا استقر النور دام ، وإذا دام صارت النفس ذات بصيرة(٢) ، فاطمأن القلب بجلال الله ، ثم انقطع عن غير الله ، فوقف هناك عاجزا ، فاستغاث بالله صارخا مضطرا ، فأجابه الحق ، فإنه يجيب دعوة المضطرين(٣) . فتفرق ذلك النور المتلألىء فى القلب ، فانمحقت به ظلمات الاشتغال بغير الله ، فيصير الملكوت مشاهدا له ، وهو قول حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا » . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عبد نور الإيمان قلبه »(٤) .

ومما يحقق ما قلناه قوله عليه السلام : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، مخلصا بها روحه ، مصدقا بها قلبه ولسانه ، فتقت له السموات فتقا ، حتى ينظر الرب إلى قائلها من أهل الدنيا » .

---

(١) لأن شرط اليقين بالشىء : ألا يستقر فى القلب شىء غير ذلك الشىء ، وأن يكون القلب عند اعتقاده خاليا من كل شىء إلا منه .

(٢) والبصر نظر القلب ، كما أن العين نظر النفس ، وقد يكون نظر العين ولا يكون بصر القلب ، قال الله تعالى (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) . فهم يرون شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يدركون شيئا من معانيه ومعاليه وأسرار اختياره .

(٣) دليل ذلك من القرآن قوله تعالى : (حتى إذ استيأس الرسل وظنو أنهم قد كذبوا أتاهم نصرنا) .

(٤) أخرجه مسلم عن أنس .

ومثله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرج أحمد والطبرانى : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا» . وقوله : « هل ترون ما أرى ؟ قالوا . لا . قال . إنى أرى الفتن تقع بين بيوتكم كوقع المطر » . وتغير حاله صلى الله عليه وسلم عند الوقوف للصلاة ، وعند حدوث الرعد والبرق وغير ذلك من الظواهر الكونية .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال : لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة . قيل : يارسول الله ، وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن المحارم »(١) ؟

وقال عليه السلام : « أخلص يكفيك القليل(٢) .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عهد إلى ألا يأتيني أحد من أمتى بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئا إلا وجبت له الجنة : قالوا : يارسول الله ، وما الذى يخلط بها ؟ قال : حرصا على الدنيا ، وجمعا لها ، ومنعا لها ، يقول بقول الأنبياء ، ويعمل عمل الجبابرة »[٣].

فالحاصل : أنه لابد من اليقين عند المتكلم بهذه الكلمة ، حتى تكون نافعة ، ولا يحصل اليقين إلا بموت الشهوات ، ولا يحصل موت الشهوات إلا بأحد طريقين : أحدهما : أن يروض نفسه حتى تموت شهواته حال حياته(٤) ، والثانى : إن ماتت شهواته عند وفاته ، وعظم رجاؤه وخوفه من ربه ، وانقطع نظره عن غير الله بالكلية اضطرارا ، فإذا تكلم ونطق بهذه الكلمة فى تلك الحالة استوجب المغفرة .

---

(١) دليل ذلك من القرآن قوله تعالى : (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا أتاهم نصرنا)

(٢) أخرجه مسلم عن أنس .

ومثله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرج أحمد الطبرانى : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا » وقوله : « هل ترون ما أرى ؟ قالوا : لا . قال : إنى أرى الفتن تقع بين بيوتكم كوقع المطر » . وتغير حاله صلى الله عليه وسلم عند الوقوف للصلاة ، وعند حدوث الرعد والبرق وغير ذلك من الظواهر الكونية .

(٣) أخرجه الطبرانى عن معاذ .

(٤) أخرجه أحمد عن معاذ بن جبل .

(٥) أخرجه الطبرانى عن زيد .

(٦) موت الشهوات خطأ ، فهى من جبلة الإنسان ، وعليها عمران الحياة ، ولكن يتغلب العقل عليها حتى لا يستغرق النفس ويعشقها القلب ، وينعقد على حبها دون سواها ، بل يتسامى بها إلى وظائفها العمرانية دون التخريبية .

فلهذا السبب استحب السلف أن يلقنوا المحتضر هذه الكلمة . قال عليه السلام : « لقنوا موتاكم » فإن الإنسان عند القرب من الموت تموت شهواته ، ويحصل له نور اليقين ، فصارت هذه الكلمة مقبوله منه ؛ وأما الأول وهو الذى يروض نفسه ، فقد فتح الله له روزنة إلى الغيب ، فركبته أهوال سلطان الجلال ، فينطق بها عن القلب الصافى ، فهو بالمغفرة أولى .

وعن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » ؛ قالوا : يارسول الله ، فكيف هى للحى قال : هى أجود وأجود » (١) . وكان أهل البيت يسمون هذه الكلمات : كلمات الفرج . فيتكلمون بها فى النوائب والشدائد فيجيئهم الفرج وفيه زيادة : «لا إله إلاالله العلى العظيم » .

وعن مكحول : أن كلمات الفرج : « لا إله إلا الله العلى العظيم ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أعلمك كلمات إذا قلتها غفرت لك ذنوبك ، وإن كانت مثل عدد الذر من الخطايا : لاإله إلا الله العلى العظيم ، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » .

فصل

قال جعفر بن محمد الصادق : عجبت لمن ابتلى بأربع (٢) كيف يغفل عن أربع : عجبت لمن أعجب بأمر كيف لا يقول : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) . وانه تعالى يقول : (**ولولا إذ دخلت جنتك قلت**

---

(١) أخرجه الترمذى عن ابن عمر . بدون آخره .

(٢) على هامش ج (تمنى أربعا) من نسخة ثانية .

ما شاء الله لا قوة إلا بالله) . . وعجبت لمن خاف قوما كيف لا يقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، والله تعالى يقول : **(الذين قال لهم الناس إن إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء)** (١) . . وعجبت لمن مكر به كيف لا يقول : وأفوض أمرى إلى الله ان الله بصير بالعباد ، والله تعالى يقول : **(فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب)**(٢) . . وعجبت لمن أصابه هم أوكرب لا يقول : **(لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)** . فيقول الله : **(فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** (٣) .

وقال سفيان بن عيينة : ان الله لما قال : **(وكذلك ننجى المؤمنين)** فقد وعد كل مؤمن يقول : (لا اله الا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) ؛ أن ينجيه من الغم . ومعلوم بالضرورة أن الله لا يخلف الميعاد .

فصل

فى أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى

لما كان كل ما نتصور النفس فالله بخلافه ، فلم يتمكن العقل والنفس من الإشارة الى حقيقة معلومة بأن حقيقة الإله هى هذه الحقيقة ؛

ويروى عن سهل بن عبد الله أنه سئل عن ذات الله فقال : ذات الله موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالإحاطة ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، وللقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ، ينظر اليه

---

(١) سورة .
(٢) سورة
(٣) سورة
(٤) سورة .

المؤمنون بالإبصار من غير إحاطة ، ولا ادراك نهاية . وروى عنه أيضا أنه قال : غاية المعرفة الدهشة والحيرة .

وقال الشبلي : من أشار إليه فهو ثنوى ، ومن كيفه فهو وثنى ، ومن نطق فيه فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل ، ومن وهم أنه واجد فهو فاقد ، وكل ما ميزتموه بأفهامكم ، وأدركتموه بعقولكم فهو مصروف مردود اليكم ، محدث مصنوع مثلكم .

واعلم أنه من الناس من احتج فى هذه المسألة بآيات ، منها قوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره)(١) . قال أهل التفسير : وما عرفوه حق معرفته . من قدر الثوب اذا حزره وأراد معرفة مقداره .

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف ، لأن هذه الآية وردت فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة مواضع .

أولها فى سورة الأنعام ، (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء) . فهؤلاء الذين قالوا : (ما أنزل الله على بشر من شىء) كانوا منكرين كل النبوة ، ومن كان كذلك كان كافرا ، فقوله : (وما قدروا الله حق قدره) عائد الى هؤلاء .

وثانيها : قال الله تعالى فى سورة الحج : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . وما قدروا الله حق قدره (٢) . فلما كان الكلام مع عبدة الأوثان كان هذا الكلام عائداً اليهم .

ثالثها : قال الله تعالى : فى سورة الزمر : (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) ثم قال بعد هذا :

---

(١) سورة الأنعام /

(٢) سورة الحج /

(**وما قدروا الله حق قدره**) (١) . فيكون هذا الكلام عائدا إلى الذين أشار اليهم قبل هذه الكلمة بقوله : (أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون . واذا ثبت هذا فقوله : (وما قدروا الله حق قدوه) عائد فى الأولى الى منكرى النبوات ، وفى الثانية والثالثة الى عبدة الأوثان ، فلا يلزم من وصف الكفار بهذا الوصف كون المؤمنين كذلك موصوفين به (٢) .

ومما اشتهر التمسك به فى هذه المسألة قوله تعالى فى سورة طه : (**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما** (٣) . وأجيب عنه بأن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أنه تعالى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون علما بما بين أيديهم وما خلفهم . فالضمير فى قوله تعالى : (به) لا يكون عائدا إلى الله ، بل عائدا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، لأن عود الضمير الى أقرب المذكورين أولى .

واعلم أن العمدة فى هذه المسألة أن الله سبحانه غـــير متناه فى الذات والصفات ، والعقل متناه فى الذات والصفات ، والمتناهى لا سبيل له إلى ادراك غير المتناهى ، وهذه هى النكتة المستحسنة ، ونحن نشرحها لتظهر قوتها ان شاء الله فنقول :

الحجة الأولى :

العقل عاجز عن معرفة كونه تعالى قديما أزليا ، وذلك لأن كل ما يستحضره العقل استحضارا على سبيل التفصيل من مقادير الأزمنة فذلك متناه ، مثلا نفرض قبل هذا الوقت ألف ألف سنة ، ونفرض بحسب كل لمحة من هذه المدة ألف ألف سنة ، وهكذا الى أقصى ما يقدر الوهم والخيال على استحضاره ثم اذا تأمل العقل عرف أن كل ذلك متناه ، والحق سبحانه انما كان قديما

---

(١) سورة الزمر / .

(٢) ضعف هذا الاستدلال لا يعنى أن المؤمنين يعرفون حقيقة الذات الإلهية ، وإنما يعنى أن الآية ليست واردة فى المؤمنين . وورودها فى غير المؤمنين لا يمنع انطباقها على المؤمنين كذلك فالمقصودون بالآية لم يقدروا الله المستحق للعبادة حق قدره ، والمؤمنون لا يستطيعون أن يقدروا حقيقة الذات المستحق للعبادة حق قدره . فلما أختلفت الجهـة جاز إطلاقها على المؤمنين كذلك .

(٣) سورة .

أزليا لأنه كان موجوداً قبل هذه المدة التى أحاط العقل والخيال بها ، فثبت أن كل مقدار يصل العقل والخيال اليه فالحق سبحانه ليس قديما باعتبار أنه كان موجوداً فيما وراء ذلك الوقت ، بل باعتبار أنه كان موجوداً فيما وراء ذلك ، فإذن لا سبيل للعقل ألبتة الى معرفة القدم والأزل . واذا عرفت هذا فى كونه أزليا قديما فاعرف مثله فى كونه دائما أبديا .

فإذن العقل لا سبيل له ألبتة إلى معرفة كونه دائماً أبداً على سبيل التفصيل ، فإن كل ما يشير العقل اليه فأزليته وأبديته خارجتان عن ذلك المقصود .

وأيضاً اذا قلنا : انه موجود ليس بجوهر ولا عرض ، ولا حال ولا محل ، فهذا ليس يقتضى معرفة ذات الحق سبحانه وتعالى ، لأنا أردنا بقولنا : موجود ، ما يناقض العدم ، فهذا المفهوم المناقض للعدم أمر يصدق على جميع الموجودات ، وحقيقة الحق سبحانه وتعالى لا توجد فى شىء سواه ، فالعلم بكونه موجوداً ليس علماً بحقيقة المخصوصية . وأما علمنا بكونه ليس جوهراً ولا عرضاً ولا جسما فهذا علم بعدم هذه الأشياء ، وليس علماً بحقيقته ، لأن حقيقته ثابتة متحققة ، والسلب لا يكون نفس الثبوت ، فثبت بمجموع ما ذكرنا أنه لا سبيل للعقول إلى معرفة حقيقة الله سبحانه وتعالى .

ومما يحقق ما ذكرنا أن العقلاء اتفقوا على أن كل صفة شاهدها الحس ، وأدركها العقل فى المكونات ، فلو وصف أحد بها الحق صار جاهلا ، فإذن لا طريق له إلى معرفة الحق الا بنفى كل ماعرفه ، ولهذا اتفقوا على أن أحسن كلمة قيلت فى التوحيد ما قاله على بن أبى طالب رضى الله عنه هى : أن تعرف كل ما يتصور فى ذهنك فالله سبحانه بخلافه .

ثم قال المحققون : لما كان كل ما تتصور فى ذهنك فالله بخلافه ، فلو تصور فى ذهنك من ذلك الخلاف شىء فالله تعالى بخلافه ، ثم لو تصور فى هذه المرتبة الثانية أمر آخر لزم نفيه ، فلم يبق للعقل فى طريق معرفة الله سبيل الا أن ينفى كل ما يقع فى خاطره ، ثم اذا وقع من هذا النفى شىء اشتغل بنفيه أيضاً ، وهكذا فى النفى الثالث ، والنفى الرابع الى ما لا نهاية . فلو نفى أبد الابدين ودهر الداهرين لكان مشغولا بهذا النفى . واذا كان الأمر كذلك بقى الحق منزهاً لواحق الفكر ، وإشارات العقل ، وعلائق الضمير .

الحجة الثانية :

وهى أن الإنسان عاجز عن معرفة نفسه . فإن قيل : إن نفسه هى هذا الهيكل المشاهد فهو باطل من وجهين : الأول أن الإنسان قد يعرف ذاته حال ما يكون غافلا عن جميع أعضائه الظاهرة والباطنة ، والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم ، والثانى أن ذاتة من أول عمره إلى آخره شيء واحد ، وأجزاء بدنه من أول عمره إلى آخرعمره غير باقيه ، والباقى مغاير لغير الباقى . فثبت أن الإنسان ليس عبارة عن هذا الهيكل المحسوس .

ثم بعد هذا يحتمل أن يقال · إنه جسم فى داخل الهيكل ، إما فى القلب فقط ، وإما فى الدماغ فقط ، أو يكون مساوياً فى كل البدن . ثم ذلك الجسم أهو من جنس الأجسام التى تولد البدن عنها ، أهو جسم مخالف لهذه الأجسام فى الماهية والحقيقة . ويحتمل أيضاً أن يقال : إنه ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز ، بل هو مدبر لهذا البدن على ما يقوله الفلاسفة .

واعلم أن هذه الاحتمالات بقيت من الزمان الأقدم إلى الآن ، وبعد ما زالت الشكوك والشبهات ، ولا شك أن أعرف المعارف فى الشيء المشار إليه بقولى : أنا ، فإذا كان هذا حالى فى معرفة أظهر الأشياء، فكيف يكون حالى فى معرفة أبعد الأشياء مناسبة عن علائق العقول وروابط الخيالات

وتحقيق الكلام فيه : أن العقل كالشمع ، ولا شك أن كل ما كان أقرب إلى الشمع كان ضره أكثر مما بعد عنه ، وأقرب الأشياء إلى الشخص نفسه ، فإذا كان نور العقل أضعف من أن يبصر ذاته ؛ فكيف يدرك حضرة الجلال مع بعده عنها بغير نهاية .

واعلم أنه كما وقعت الشبهات المذكورة فى معرفة النفس فقد وقعت أيضاً فى معرفة حقيقة الزمان وحقيقة المكان ، وتحير الخلق أن القوة الباصرة كيف تبصر بحصول الشبح أو بخروج الشعاع ، وكذا البحث عن القوة السامعة ، والقوة الذائقة ، وتحيروا أيضاً فى البحث عن كيفية التخيلات ، فإن هذه الصور المتخيلة إن لم يكن لها وجود أصلا فكيف يكون حصول التميز والتعيين فيها . وإن كان لها وجود فهى قائمة بأنفسها ، أو محلها شيء مجرد أو محلها جسم ، والكل محال ممتنع .

ولما كانت معرفة الخلق بهذه الأمور الظاهرة الجليلة بلغت حداً من الصعوبة إلى هذا الحد فما ظنك بمعرفتهم بمن تقدس عن مناسبات العقول والأفكار ، وتنزه عن مشابهات الخيالات والأنظار .

* * *

الحجة الثالثة :

العقل لا يتصرف إلا فيما يكون فى زمان أو مكان ، لأن كل ما أدركه فإنه يدركه فى الماضى أو فى المستقبل أو فى الحال ، وكل ذلك تحت الزمان ، وكل ما يتصوره فإنه إنما يتصوره إما ههنا أو هناك ، وكل ذلك بحسب المكان ، وإذا قلت : الحق سبحانه بخلاف هذه الأشياء فمعرفته هذه المعرفة ليس الا نفى ما عرفته وتصورته . فالحاصل فيه نفى غير الحق ، ونفى غير الحق لا يكون هو عين وجدان الحق .

« تم الكتاب بحمد الله تعالى »